

الجامعة الأميركية في بيروت
آراء الجاحظ في مناقب الامم ومثالبها :
عرض وتحليل .

T
204A

جمال فؤاد العطار

رسالة مقدمة الى الدائرة العربية
نسي
الجامعة الأميركية في بيروت
لنيل درجة الماجستير في الادب العربي .

كانون الثاني ١٩٨٩

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

The Views of al-Jāḥiẓ concerning the Nations
As Reflected in His Works:
An Exposé and a Critique.

By

Jamāl Fu'ād al-Aṭṭār

A Thesis

Submitted in Partial Fulfillment of the
Requirements for the Degree of Master of Arts in
the Department of Arabic and Near Eastern Languages,
at the American University of Beirut
Beirut, Lebanon

January, 1989

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

Thesis Title :

The Views of al-Jāhiz concerning the Nations
As Reflected in his works:
An Exposé and a Critique.

By

Jamāl Fu'ad al-Attār

Approved:

Sāmī Makārīm

Sami Makarem
Advisor

'Afīf Dimashqiyya

Afif Dimashkiyya
Member of Committee

Tarīf Bazzī

Tarif Bazzi
Member of Committee

Tarīf Khālidi

Tarif Khalidi
Member of Committee

Date of Thesis Presentation January 6th, 1989.

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

Thesis release form

I, Jamal Fu'ad al-Attār

☐

authorize the American University of Beirut to supply copies of my thesis to libraries or individuals on request.

OR

☒

do not authorize the American University of Beirut to supply copies of my thesis to libraries or individuals.

Jamāl F. Attār
Signature

January 25th, 1989.
Date

فهرس المحتويات

- ١- المقدمة . ١ - ٣ .
- ٢- الباب الاول : عرض لآراء الجاحظ في مناقب الامم المعتبرة ومثالبها .
 - (أ) الفصل الاول - العرب : ٥ - ٥١ .
 - (ب) كلمة في سائر الامم المعتبرة : ٥٢ - ٥٣ .
 - (ج) الفصل الثاني - الهند : ٥٤ - ٦١ .
 - (د) الفصل الثالث - الفرس : ٦٢ - ٧٤ .
 - (هـ) الفصل الرابع - الروم : ٧٥ - ٨٠ .
 - (و) الفصل الخامس - الترك : ٨١ - ٩٢ .
 - (ز) الفصل السادس - الصين : ٩٣ - ٩٥ .
 - (ح) الفصل السابع - اليونان : ٩٦ - ١٠٤ .
- ٣- الباب الثاني : عرض لآراء الجاحظ في الامم غير المعتبرة .
 - (أ) الفصل الاول - الصقالبة : ١٠٦ - ١١٠ .
 - (ب) الفصل الثاني - اصناف السودان : ١١١ - ١٢٠ .
- ٤- الباب الثالث : الخاتمة . مقاييس الجاحظ في الحكم على الامم وتحليل آرائه في هذا الموضوع : ١٢٢ - ١٢٨ .
- ٥- ثبت مصادر الرسالة ومراجعتها : ١٢٩ - ١٣٣ .

المقدمة

ان الفترة الزمنية الواسعة التي عاشها الجاحظ من عمر الخلافة العباسية لهي جديرة حق بالدراسة. فالجاحظ الذي عاش من (١٦٠ هـ / ٧٧٧م - ٢٥٥ هـ / ٨٦٩م) (١)، عاصر احد عشر خليفة هم : السهدي والهادي والرشيد والأمين والأمين والمعتصم والواثق والمتوكل والمتنصر والمستعين والمعتز. ولم تكن طلائع الجاحظ سلبية برجال البلاط العباسي بل كانت طلاقته وثيقة بحيث تهيأ للجاحظ كما يقول طه الحاجري ان يكون " ضرورة من ضرورات الدولة ، يساهم بأدبه وعلمه وقد رته الكلامية في تناول بعض المسائل التي كانت تعنيها وتشغل بالها. (٢) ولعل الجاحظ كان اشبه بمستشار الشوعيون الداخلية خلال تلك الفترة الواسعة من عمر الخلافة. وان رسائله الهادفة الى توجيه رجال الدولة كالتي ألفها في موضوع الامامة (٣) حين وقعت الفتنة بين الامين والأمين ،

(١) انظر :

Encyclopaedia of Islam, new ed., s.v. "Al-Djāhiz", by Charles Pellat.

وانظر ايضا :

Charles Pellat, The Life and Works of Al-Djāhiz, (University of California Press, 1969), p. 3.

(٢) طه الحاجري ، الجاحظ : حياته وآثاره (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٠) ، ص ٣٦٠ .

(٣) الجاحظ ، " رسالة في استحقاق الامامة " و " رسالة الجوابات في الامامة " في : رسائل الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، ج ١ (القاهرة : مكتبة الخانجي ، ١٩٦٤ - ١٩٧٩) ، ج ٢ (١٩٧٩) ، ص ٢٠٧ و ٢٨٥ . وانظر " رسالة الجاحظ في الحكمين وتصويب امير المؤمنين علي بن ابي طالب " ، تحقيق شارل بلا ، مجلة الشرق (بيروت) ، السنة ٥٢ ، ج ٥ ، (١٩٥٨) . وانظر مقالة المستشرق فابرييل فيراند حول فتنة الامين والأمين ولدى هارون الرشيد التي حصلت في عام ١٩٥ هـ / ٨١٠م في :

Encyclopaedia of Islam, new ed. s.v. "Al-Amīn," by Gab. Ferrand.

او موضوع تأليف قلوب جند الخلافة (١) او التي كتبها في توجيه القاضي ابن ابي
دواد (٢)، تدل على ان رأى الحاجرى السابق ان الجاحظ كان ضرورة من ضرورات
الدولة العباسية ليس بعيدا عن الحقيقة كثيرا .

ومن خلال الفترة الطويلة التي عاشها الجاحظ ، استطاع ان يطلع علمنا
بآراء لا تعكس نظرة العرب في انفسها من حيث هي امة معتبرة فحسب وانما فسي
عدد لا بأس به من الامم المعتبرة كالفرس والروم والهند والصين والترك واليونان
فضلا عن اسم السودان وامة الصقالبة (٣) . والجدير بالذكر ان لفظي الجنس والامة
في ادب الجاحظ هما لفظان مترادفان لحقيقة واحدة ، وعادة ما يأتي هذا المعنى
الواحد بهذين اللفظين او بالفاظ اخرى مثل العالمين - الناس - العالم وسكانه -
الدنيا واهلها - الجيل - الصنف ، وينطبق ذلك على سائر كتابات الجاحظ التي
وصلتنا .

(١) اى رسالته " في مناقب الترك وعامة جند الخلافة " التي كتبها الى الفتح بن
خاقان حين دخل الترك رافدا ساعدا الى جسم الدولة العباسية ، مع ما
وافق ذلك من مشاكل . انظر رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٥ - ٨٦ .

(٢) اى رسالة " المعاش والمعاد " التي كتبها لابن ابي دواد ، وزير التوكيل
المتوفى ٢٣٩ هـ / ٨٥٣ - ٨٥٤ م . انظر المصدر نفسه .

(٣) تجدر الاشارة الى ان الجاحظ لا يعد الصقالبة واصناف السودان من الامم
المعتبرة ، باستثناء امة الهند .

تقتصر هذه الرسالة على عرض لآراء الجاحظ في مناقب الام ومثالبهم .
والام المعتبرة لديه هي العرب والفرس والهند والروم والصين والترك واليونان (١)
كما تتضمن الرسالة ايضا عرضا لآرائه في الصقالبة واصناف السودان كالزنج والسند
والاحباش والنوبة والقبط . ونبدأ الآن بعرض آراء الجاحظ في الام المعتبرة مفتتحين
برأيه في العرب ومحاولين التعرف على مقاييسه (٢) التي ترقى بالام الى منزلة
الام المعتبرة ، والتي تحول بينها وبين هذه الدرجة .

الباب الاول

=====

عرض لآراء الجاحظ في مناقب الامم المعتبرة ومثالبها

=====

الفصل الاول

=====

العرب

=====

مناقب العرب

تناول الجاحظ في نظره في العرب مناقبها ومثالبها . اما المناقب التي جعلتها في رأيه تفضل الامم جمعاء ، فهي ان النبي محمدا افضل بني هاشم ، ونسبي هاشم افضل قريش ، وقريشا افضل قبائل العرب . وسنبدا بحثنا في العرب بذكر المحاسن التي تمتاز بها عن غيرها من الامم ، ثم نذكر المحاسن التي تمتاز بها قريش على العرب ، وبعد ذلك نذكر المحاسن التي يمتاز بها بنو هاشم على قريش ، ثم نذكر الخصال التي فضل بها محمد بنى هاشم .

وقد ذكر الجاحظ هذه المميزات متفرقة في مختلف آثاره (١) ، فكان لابد من اظهار هذه المميزات ومحاولة تنظيها مجتمعة بالرجوع الى جميع هذه الآثار .

-
- (١) اما آراؤه في العرب فقد وردت في البيان والتبيين ، وكتاب الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ، ٧ اجزاء ، الطبعة ٣ ، (بيروت : دار احيا التراث العربي ، ١٩٦٩) ، والبخل ، تحقيق طه الحاجري ، (القاهرة ، دار الكتاب المصري ، ١٩٤٨) ، ورسائل الجاحظ ، وكتاب " الاخبار وكيف تصح " . واما آراؤه في قريش ، فقد وردت خاصة في " كتاب في الاوطان والبلدان " و " كتاب في السعسين " و " رسالة في مدح التجارة " ضمن رسائل الجاحظ كما وردت في البيان والتبيين . واما آراؤه في بني هاشم فقد وردت في رسائل الجاحظ وكتاب فضل بني هاشم على عبد شمس في رسائل الجاحظ ، تحقيق حسن السندوبي ، (القاهرة : المطبعة الرحمانية ، ١٩٣١) وفي " رسالة تفضيل بني هاشم على من سواهم " ، مجلة لغة العرب (بغداد) السنة ٩ ج : ٦ ، ٧ (١٩٣١) ، وكتاب البخل . واما آراؤه في النبي محمد فقد وردت في المصادر المذكورة اعلاه وخاصة في البيان والتبيين و رسائل الجاحظ . وحين نذكر لاحقا رسائل الجاحظ فالمقصود بها تلك التي حققها عبد السلام هارون ، واما حين نستخدم الرسائل التي حققها السندوبي فسوف نميزها عن الاولى بذكر السندوبي بين قوسين .

١- ما تفضل به العرب سائر الامم

على رأس الخيرات المقسومة من الله (١) ، المفاضة على الخلق ، تقف فضيلة البيان العربي او حظ العربية التي فضلت العرب بها الامم جميعا ، وذلك يعود لسببين : الاول ان البيان العربي اهل العرب لاستقبال التنزيل القرآني دون سائر الامم ، وقد قال الجاحظ في ذلك :

"... ولفضل الفصاحة وحسن البيان ، بعث الله تعالى افضل انبيائه واكرم رسله من العرب ، وجعل لسانه عربيا ، وانزل عليه قرآنا عربيا كما قال تعالى (بلسان عربي مبين) (٢)"

اما السبب الثاني الذي جعل العرب تفضل الامم ، فهو ان فضيلة البيان العربي لم تؤهل العرب لاستقبال التنزيل فحسب وانما تم بها افتتاح الخطاب الالهي لجميع الامم بعدما تم للعرب ما دعاه الجاحظ " حظ العربية " (٣) قال :

"... انما خاطب (٤) العرب ، وهم الحجة على جميع اهل اللغات ، ثم تصير تلك المخاطبة لجميع الامم بعد الترجمة على السنة هو لا العرب ، الذين بهم بدأت المخاطبة لجميع الامم : (٥)"

فللعرب ان تغفر على سائر الامم اذ اصبحت كما يقول الجاحظ بذلك الحسب او الخطاب ، الحجة على جميع اهل اللغات ، اي حجة الله على خلقه حين فتح امامها فرصة قيادة الامم وهدايتها الى المعاني الميثوقة في ذلك الخطاب لانه بلغتها ونهجها خاطب الله العرب والعجم .

(١) اللفظ للجاحظ : انظر " رسالة كتمان السر وحفظ اللسان " في رسائل الجاحظ ١ :

١٧١ و " رسالة الوكلاء " ، المصدر نفسه ، ٤ : ١٠٣ . وفي الاخيرة يقول الجاحظ : " ابسى الله الا ان يقسم نعمه بين طبقات جميع عباد ، قسمة عدل . "

(٢) الشعراء : ١٩٥ . انظر الجاحظ في " رسالة تفضيل النطق على الصمت " ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ٢٣٧ .

(٣) الجاحظ ، " كتاب الاخبار وكيف تصح " ص ١٢ .

(٤) يعود الضمير المستتر في " خاطب " الى الله .

(٥) الجاحظ ، " كتاب الحيوان " ، ٧ : ٢١٣ - ٢١٤ .

بعد فضيلة البيان العربي* الذي ليس كمثل بيان* (١) او اللغة التيليس كمثلها في السعة لغة (٢) ، رأى الجاحظ ان العرب فاقت الاسم لتمييزها بطائفة من الخصائص الاجتماعية هي من ذلك البيان غايته ومادته . على رأس تلك الفضائيل ما سماه الجاحظ* احكام العرب شأن المناقب والمثالب (٣) ، كأنما الجاحظ يرمي* بذلك الى ان العرب ما كان ليتم لها حظ التنزيل لولا تمتعها بطائفة من الخصائص يسوقها ليهيمن على كونها تمثل البذرة الصالحة المرتقة للمجتمع الاسلامي . قال مشهدا بالدور الاصلاحى الاجتماعى للعرب ولقتها :

... وليس في الارض قوم اعنى بدم جليل القبح ودقيقه ومدح دقيق الحسن وجليله من العرب ، حتى لو جهد افطن البرية واعقل الخليقة ان يذكر معنى لم يذكره ، لما اصابه ... ولهم حظ العربية مع الحفظ لانسابهم ومحاسن اسلافهم وساوى* اكفائهم ، للتمايز بالقبح ، والتفاخر بالحسن ، ليجعلوا ذلك عوناً لهم على اكتساب الجميع واصطناع المعروف ، ومزجراً لهم عن اتيان القبح وفعل العار ، ولم يؤدبوا اولادهم بما ادبهم به آباؤهم ... (٤)

وقبل تعداد بقية الخصال التي فضلت بها العرب العجم ، نشير الى ان هذه الخصلة العربية المتمثلة في ولعها بالمناقب وذمها المثالب عدها الجاحظ من جملة الخيرات المقسومة من عند الله للخلق عامة والعرب خاصة ، ولا سيما الذين يمثلون في نظر الجاحظ ، وفي تلك المرحلة من التاريخ (اى مرحلة ما قبل الاسلام) ، البقية الثابتة على دين ابراهيم (٥) ، اى انها غير موجهة

(١) الجاحظ ، " كتاب الاخبار وكيف تصح " ٩٢ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) الجاحظ ، " رسالة في مناقب الترك وعامة جند الخلافة " ، رسائل الجاحظ ،

١ : ٦٩ - ٧٠ .

(٤) الجاحظ ، " كتاب الاخبار وكيف تصح " ، ص ٩٢ .

(٥) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٦ : ٢٢٣ .

اصلا للبقية غير الثابتة على دين ابراهيم والتي خصها الجاحظ بنقد دقيق . ثم ان الجاحظ ما انفك يلحظ خضوع الام لتسيير الهي كلما دار الحديث حول فضائل الام فهناك تدخل الهي واضح في تلوين الام بجملة الخيرات المقسومات اصلا من عنده والسفاضة على جميع خلقه دون ان يكون ذلك التدخل حكرا للعرب لانه يشمل الام جميعا . قال :

"... ثم اعلم بعد هذا ان كل امة وقرن وكل جيل وبني اب ، وجدتهم قد برعوا في الصناعات ، وفضلوا الناس في البهائم ، او فاقوهم في الاداب ، وفي تأسيس الملك ، او في النصر بالحرب ، فانك لا تجدهم في الغاية وفي اقصى النهاية ، الا ان يكون الله تعالى قد سخرهم لذلك المعنى بالاسباب ، وقصرهم عليه بالعلل التي تقابل تلك الامور ، وتصلح لتلك المعاني... (١)"

ويرى الجاحظ ان هذه الخصائص او الخيرات التي تحققت للعرب انما تمت بتسخير الهي بترافق مع حرية الارادة البشرية . قال :

"... وكل صنف من الناس مزين عندهم ما هم فيه ، وسهل ذلك عليهم... فسخرهم على غير اكرام ، ورغبهم من غير دعا ،... والا سماء مهذولة ، والصناعات مباحة ، والتاجر مطلقة... ولكنها مطلقة في الظاهر ، مقسمة في الباطن... (٢)"

ولقد جمع الجاحظ قدرا كبيرا من هذه الخصائص بقوله الذي يفيد التوافق المذكور والذي جعل نفوس العرب اكبر وهمها ارفع من سائر الامم :

"... والعرب لم يكونوا تجارا ولا صناعا ولا اطباء ولا حاسباء... ولا اصحاب زرع لخوفهم من صغار الجزية . ولم يكونوا اصحاب جمع وكسب ولا اصحاب احتكار لما في ايديهم . ولم يفتقروا الفقر المدقع الذي يشغل عن المعرفة ولم يستغنوا الفنى الذي يورث البؤسة ، ولم يحتملوا ذلا قط فيميت قلوبهم ، ويصفر عندهم انفسهم . وكانوا سكان فياف ، وترهبة العسرا ،

(١) الجاحظ ، "رسالة في مناقب الترك" ، رسائل الجاحظ ، ١ : ٧٣ .

(٢) الجاحظ ، "رسالة في حجج النبوة" ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ٢٤٢ - ٢٤٤ .

لا يعرفون الغسق ولا اللشق ولا العفن ولا التخمر . اذهان حداد ونفوس مفكرة ، فحين حلوا حدهم ، ووجهوا قواهم لقول الشعر وبلاغة المنطق وتشقيق اللغة وتصاريف الكلام ، بعد قيافة الاثر (١) ، وحفظ النسب (٢) ، والاهتداء بالنجوم ، والاستدلال بالآفاق ، وتعريف الانواء (٣) والبصير بالخيال (٤) والسلاح وآلة الحرب ، والحفظ لكل سموع والاعتبار بكل محسوس ، واحكام شأن المناقب والمثالب ، بلغوا في ذلك الغاية ، وحازوا كل امنية . وبمعز هذه العلل صارت نفوسهم اكبر وهمهم ارفع من جميع الامم وافخر ولا يامهم احفظ وانكر . (٥)

(١) اورد الجاحظ هذه الخاصة بقوله "وقيافة الاثر مع قيافة البشر" في كتابه "الاخبار وكيف تصح" ص ٩١ . وقال الجاحظ ان القيافة لدى العرب شأن فطري لا يكتسب" نجدها في بني مدلج ثم في خاص من خثعم وكذلك خزاعة ، وهي في قريش اقل وهي في بني اسد اقل . "انظر الجاحظ ، كتاب الترميم والتدوير ، تحقيق شارل بلا (بيروت : المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٥٥) الفقرة ١٧٦ الصفحة ٩٢ .

(٢) اورد الجاحظ هذه الخاصة بقوله "وللعرب جودة الحفظ لانسابهم وآثرهم الذي لا يقدر احد على مثله وان دونه وغلده في كتبه . ٣ . انظر : "كتاب الاخبار" ، ص ٩٣ . ورأى الجاحظ ان خصلة الحفظ من الخصال التي فحلت العرب بها العجم التي لا تعوط الانساب ولا تتحفظ المقامات ، انظر الجاحظ ، البيان ، ص ١٦١ ، و "رسالة مناقب الترك" ، رسائل الجاحظ ، ١ : ٢١ حيث يذكر ان العرب امة امية والعجم امة كتابية ، والحاسب والاضداد ، تحقيق فوزى عطوى ، (بيروت ، دار صعب ، ١٩٦٩) ص ٣ .

(٣) او المعرفة بعوامل الطبيعة التي يرجعها الجاحظ في كتاب الحيوان ، ج ٦ : ٢٩ - ٣١ الى حاجة العرب الى تلك المعرفة ودقة اذهانها وجسودة حفظها وطول وقوع بصرها . انظر ايضا "كتاب الاخبار وكيف تصح" ، ص ٩٣ .

(٤) قال الجاحظ في ذلك ايضا : "وليس في الناس اشد عجا بالخيال من العرب ولا اكثر لها ارتباطا ولا اهما لن لا يتخذها . "انظر "كتاب الاخبار وكيف تصح" ، ص ١٠٣ .

(٥) الجاحظ ، "رسالة في مناقب الترك" ، رسائل الجاحظ ، ١ : ٦٩ - ٧٠ .

وفي موضع آخر حدد الجاحظ اسما^١ الام التي تفوقت العرب عليها ، كما ذكر
خصائص اخرى فاقت العرب بها هذه الام قال :

"... وللعرب من صدق الحس وصواب الحدس وجودة الظن وصحة
الرأى ما لا يعرف لغيرهم . ولهم العزم الذي لا يشبهه عزم ، والصبر
الذي لا يشبهه صبر (١) ، والجود (٢) والانفة والحمية التي لا يدانيهم
احد فيها ، ولا يتعلق بها رومي ولا هندي ولا فارسي ، لان هذه الام
كلها باختلاف العرب شيما" (٣)

والعرب ان شاركت بعض الام في دائرة الخيرات (٤) المقسومة من الله ، فشاركتها
تفيد في نظر الجاحظ التفوق في درجة انتشارها وتامها وكثرتها لا المساواة (٥) ، التي
افرد لها بحثا مستقلا ، كما تفلت على المساواة . فالعرب فاقت سائر الام بخصائص هي من
جنس خيرات الام كي يكون التفوق في محله ، فكأن الحظ الاوفر من الخيرات المفاضلة

(١) عبر الجاحظ عن صبر العرب ، حين وصفها بقلة الطعام وشظف العيش والجهد^{*}
الذي لم يسمع به في امة من الام^{*} راجع : الجاحظ ، كتاب البخلا ص ٩٣ ، ٩٨ ،
١٠٦ ، ٢٠١ .

(٢) راجع المصدر السابق ، ص ٢٢٣ . واذا كان الكرم والضيافة خصلة عربية فسلان
الهغل قدر اهل مرو والاهواز من بني فارس وقدر للروم ايضا . انظر : البخلاء
ص ١٣ ، ١٤٢ ، ١٧٨ .

(٣) الجاحظ ، " كتاب الاخبار وكيف تصح " ، ص ٩٢ .

(٤) كاستوا^{*} الام المعتبرة في التحلي بفضيلة الحنين الى الوطن . انظر الجاحظ في
" رسالة في الحنين الى الاوطان " ، رسائل الجاحظ ، ٢ : ٤٠٧ ، واشترك الزوج
مع العرب في التحلي بفضيلة الكرم . انظر الجاحظ ، " كتاب فخر السودان على
البيضان " ، رسائل الجاحظ ، واشترك الترك والعرب في معاني الفروسية
والنجدة كما في " رسالة مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، ١ : ٥ - ٨٦ .

(٥) في الفصل الاخير من هذه الرسالة اشارة الى رأى الجاحظ في بعض المواطنين
التي تساوت فيها العرب والعجم .

على الخلق قد قسم للعرب (١) دون حرمان سائر الامم منها وخاصة المعتبرة التي لم يخف الجاحظ اعجابه بها كما سنرى في حينه من الرسالة .

ويواصل الجاحظ تعميماته لظهار فضل العرب على غيرها فينسب الى صبيان العرب ونسائها وعوامها تفوقاً على نظرائها في سائر الامم . قال في ذلك :

"... وليس في الارض صبيان في عقول الرجال غير صبيانهم... واما العوام من اهل ملتنا ودعوتنا ولغتنا وادبنا واخلاقتنا فالطبقة التي عقولها فوق تلك الامم ولم يبلغوا منزلة الخاصة منا ، على ان الخاصة تتفاضل فسي طبقات ايضا... واذا كان نساء العرب في الجملة اعقل من رجال العجم فما ظنك بالمرأة منهم اذا كانت مقدّمة فيهم ؟...." (٢)

ويوضح الجاحظ في موضع آخر ان للحظّ دورات بين الامم ، فهذه الخصال التي لصبيان العرب ونسائها ورجالها قد سبقهم اليها من اجري عليه الله الطك والنبوة من قبل . والعرب بدورها تفوق الامم نظرا لانها اصبحت تجمع الآن فضلي النبوة والملك ، قال :

"... فقد علمنا ان العجم حين كان فيهم الطك والنبوة ، كانوا اشرف من العرب ، وان الله لما حول ذلك الى العرب صارت العرب اشرف منهم." (٣)

ولا يعني ذلك ان الجاحظ يرى ان جميع افراد الجنس العربي يتمتعون بالخصائص السائرة عن المجموع . قال : " وليس كل اعرابي شاعرا وقائفا... " (٤) . جل ما في الامر ان خصال العرب المذكورة اعم واتم ، وهي فيهم اظهر واكثر . (٥)

(١) وذلك في مرحلة محددة من اطوار الامة ، هي مرحلة تمتعها بالملك والنبوة . انهما المرحلة التي سبقتها تلמיד الجاحظ ، التوحيدى ، في كتابه الانتاع " ايام النشأة " . انها مرحلة السيادة لدى الامة التي ينبغي تحرى حسناتها ومناقبتها فيها دون غيرها من المراحل . انظر : التوحيدى ، الانتاع والموانسة ، تحقيق احمد امين واحمد الزين (بيروت : دار مكتبة الحياة) ١ : ٧٣ .

(٢) انظر : الجاحظ في " كتاب الاخبار وكيف تصحّ المجلة الآسيوية " ، ص ٩٣ ، وكتاب البيان والتبيين ١ : ١٣٧ ، وكتاب الحيوان ١ : ٢٨٦ .

(٣) الجاحظ " رسالة في النابتة " ، رسائل الجاحظ ، ٢ : ٢١ و " رسالة في حجج النبوة " ، المصدر نفسه ، ٣ : ٢٤٥ حيث يذكر ان العرب للملك مسخرون .

(٤) الجاحظ ، " رسالة في مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، ١ : ٧٣ .

(٥) المصدر نفسه .

باختصار ، ان العرب فاقت الامم بسمة البهتان وخصائص اجتماعية وخلقسية هيأتها لاستقبال التنزيل . فزيادة الى كونها صاحبة " التعابير بالمثالب والتفاخر بالمناقب بالمشهور المرسل بعد الموزون المعدل ، بلسان امضى من السنان وارهف من السيف الحسام ؛ (١) مع ما يعكسه ذلك من تهينة محكمة لاساءة المجتمع الاسلامي ، فهي امسة اعتمدت " على حفظ الاميين الذين لا يتكلمون على الكتب المدونة والخطوط المطرسة ؛ (٢) مع ما يعكسه هذا القول من استعداد لحفظ التنزيل في الصدور . وقد اشار الجاحظ الى هذه النقطة التي تمت للعرب بقوله :

" . . . ان هذه العرب في جميع الناس كمقدار القرحة في جميع جسد الفرس . فلولا ان الله رقى عليهم ، فجعلهم في حاشية ، لطمت هذه العجمان آثارهم . . . " (٣)

وفي هذا تأكيد لمقولته التي ترى ان يد الله تلازم جميع الخيرات المفاضة على خلقه ، " كعظ العربية " المقسوم للعرب ، ذي الوجة الثلاثة : البهاني والخلقي والاعلامي .

٢- ما تفضل به قريش العرب

تميزت قريش في نظر الجاحظ على غيرها من العرب بخصال معينة وذلك " تعبئة لها لكل جسم وترية لها لكل عظيم " . (٤)

من هذه الخصال اعتداد قريش باصلها وحسبها ، فاهلها " لقاح ، لم تؤد اتاوة قط ، ولم تطؤها الطوك بالتلميك " (٥) كما لم يصبها في الجاهلية ساء . قال :

" . . . وما بانت به قريش من سائر العرب ، انّا لم نر قرشياً انتسب الى قبيلة من قبائل العرب ، وقد رأينا في قبائل العرب الاشراف رجالا السس الساعنة ينتسبون في قريش . . . وما بانت به قريش انها لم تلد في الجاهلية

(١) الجاحظ ، " رسالة في مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ١٨٠ - ١٨١ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) الجاحظ ، البهتان والتبيين ، ٢ : ٧١ - ٧٢ .

(٤) الجاحظ ، " كتاب في المعلمين " ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ٤٦ .

(٥) الجاحظ ، " كتاب في الاوطان والبلدان " ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ١٢٠ .

ولدا قط لغيرها . . . وما بانث به قريش من سائر العرب ان الله
جا" بالاسلام وليس في ايدي جميع العرب سبية من جميع نسا" قريش ،
ولا وجدوا في جميع ايدي العرب ولدا من امرأة من قريش . - (١)

ومن هذه الخصال ايضا اتصاف قريش بالحساسة الدينية ، واستثنائها بخدمة
البيت العتيق ، ما خولها سيادة القبائل وذلك لاجتماع الاخلاق والالفاظ والعقول
والاحلام فيها ، الى جانب عدم مشاركتها العرب في شي" من جفاتها او غلظ شهواتها .
قال :

" . . . وما بانث به قريش من سائر العرب انها لم تكن تزوج احدا
من اشراف العرب الا على ان يتحصن ، وكانوا يزوجون من غير ان يشترط
عليهم : وهي عامر بن صعصعة وثقيف وخزاعة ، والحارث بن كعب ،
وكانوا ديانين ، ولذلك تركوا الغزولما فيه من الغصب والغشم واستحلال
الاموال والفروج . ومن العجب انهم مع تركهم الغزو ، كانوا اعسسز
وامثل . . . ومن العجب ان كسبهم لما قل من قبل تركهم الغزو ، ومالوا
الى الايلاف والجهاد ، لم يعترهم من بخل التجار قليل ولا كثير ، والبخل
خلقة في الطباع ، فاعطوا الشعراء كما يعطي الملوك ، وقرروا الاضياف ، ووصلوا
الارحام ، وقاموا بنواشب زوار البيت . . . ومن خصالهم انهم لم يشاركوا
العرب والاعراب في شي" من جفائهم وغلظ شهواتهم ، وكانوا لا يأكلون
الضباب ولا شيئا من الحشرات ، الا ترى ان النبي - صلى الله عليه وسلم -
اتوا خوانه بضب فقال : " ليس من طعام قومي " . . . وكانت العرب قاطبة
ترد مكة في ايام الموسم ، وترد اسواق عكاظ وذا السجاء ، وتقيم هناك
الايام الطوال ، فتعرف قريش ، لاجتماع الاخلاق لهم والشمايل والالفاظ ،
والعقول والاحلام ، وهي وادعة وذلك قائم لها ، راهن عندها في كل عام ،
تتملك عليهم فيقتسمونهم ، فتكون فطنان للسيرة ، وينوع امر لكذا وتعم لكذا ،
تغلبها المناسك وتقوم بجميع شأنها . . . واهل مكة حمس ولغاح لا يؤدون
اتاة ، ولهم السقاية ، ودار الندوة ، والرفادة والسدانة . - (٢)

-
- (١) الجاحظ ، المصدر نفسه ، ٤ : ١١٤ - ١١٥ . والقبائل المذكورة هي التسي
حمستها قريش (عدا ثقيف وخزاعة) انظر المصدر نفسه ص ١٢٧ . والملاحظ
ان الجاحظ في النص التالي استدرك مقولته الاخيرة حين قال : ان شرط التحصن
الديني لرجال القبائل العربية بامكانه ان يسمح لهم الانتساب من قبيلة قريش .
وهذا الاستثناء فاته في النص الاول المذكور .
- (٢) الجاحظ ، المصدر نفسه ، ٤ : ١١٥ - ١١٩ .

وسا بانته به قريش سائر العرب اتصافها بالحظ الا وفر من الفصاحة قال :

"... قال النبي صلى الله عليه وسلم : "انا افصح العرب بيد اني من قريش ونشأت في بني سعد بن بكر". ولولم يكن ما عددنا من هؤلاء الاحياء الا قريش وحدها ، لكان فيها مستغنى عن غيرها . وكفاية عن من سواها ، لان قريشا افصح العرب لسانا وفضلها بهانا ، واحضرها جوابا ، واحسنها بديهة ، واجمعها عند الكلام قلبا . (١)

وقد عبر الجاحظ عن فضل قريش البهاني بقوله ايضا :

"... قال معاوية يوما : " من افصح الناس ؟ " فقال قائل : " قوم ارتفعوا عن لخلخانية العراق ، وتياضوا عن منعة تميم وتياسروا عن كسكة بكر ، ليس لهم غمضة قضاة ولا طحطمانية حمير . " قال : " من هم ؟ " قال : " قريش " (٢)

وقد لاحظ الجاحظ ارتباطا بين فصاحة التنزيل القرآني وفصاحة الوسط القرشي الذي استقبله ، انسجاما مع نظرت العامة في هذا الشأن التي ترى تناسبا بين النبوة والوسط البشري الذي تنزل فيه قال :

(١) الجاحظ ، "رسالة في تفضيل النطق على الصمت" ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ٢٣٨ و "في الاوطان والبلدان" ، المصدر نفسه ، ٤ : ١١٧ . واللاحظ اعلاه ان الجاحظ فهم كلمة "بيد" بمعنى "من اجل" . وهذا رأى ابن هشام (ت ١٣٦٠م) في مغني اللبيب عن كتب الاطريب (دمشق : دار الفكر ، ١٩٦٤) ج ١ : ١٢٢ ، ورأى الزيمردى (١٧٣٢ - ١٧٩١م) في تاج العرويس (مصر : المطبعة الخيرية ١٢٨١هـ) ج ٢ : ٣٠٨ ورأى الفيروزبادي (١٣٢٩ - ١٤١٤م) في القاموس المحيط (القاهرة ، ١٢٨١هـ) ج ١ : ٣٠٤ . والمصدران الاخيران اجازا ان تأتي بيد بمعنى "غير" ايضا . وقد حفلت المصادر اللغوية التالية بالانجاء الآخر لمعنى بيد . انظر ابن الاثير (١١٤٩ - ١٢١٠م) في النهاية في غريب الحديث (مصر : الطبعة العشانية ، ١٣١١) ج ١ : ١٠٣ وابن منظور (١٢٣٢ - ١٣١١م) في لسان العرب (بيروت ، دار لسان العرب) ج ١ : ٢٩٤ وكذلك الجوهرى (ت ١٠٠٣م) في الصاحح (بيروت : دار العليسم للتراث ، ١٩٧٩) ج ٢ : ٤٥ وابن مالك في الافية (راجع قاموس Lane ، بيروت : مكتبة لبنان ، ١٩٦٨) ج ١ : ٢٨١ .

(٢) الجاحظ ، البيان والتهيين ، ٣ : ٢١٢ - ٢١٣ .

"... ولما كان اعجب الامور عند قوم فرعون السحر... بحث الله موسى عليه السلام على ابطاله وتوحيده وكشف ضعفه واطهاره... وكذلك زمن عيسى عليه السلام كان الاغلب على اهله وعلى خاصة علماء الطب فارسله تعالى باحيا الموتى ان كانت ظايتهم علاج المرضى... وكذلك دهر محمد صلى الله عليه وسلم كان اغلب الامور عليهم، واحسنها عندهم، واجلها في صدورهم، احسن الهيان ونظم ضروب الكلام، مع علمهم له، وانفرادهم به. فحين شاعت البلافة فيهم، وكثر شعراؤهم وفساق الناس خطباؤهم، بعث الله عز وجل، فتحداهم بما كانوا لا يشكون انهم يقدرين على اكثر منه... فمن احكم الحكمة ارسال كل نبي بما يفهم اعجب الامور عندهم ويهبط اقوى الاشياء في ظنهم." (١)

وما بانث به قريش العرب، ممارستها التجارة بطريقة مغايرة لسلوك تجار العالم آنذاك. فعلى الرغم ان قريشا كانت تسكن بواد غير ذي زرع، وتحمل مشقات التجارة فان ذلك لم يزد لها الا جودا وكرا. قال الجاحظ:

"... وليس قولهم: قرشي لقولهم: هاشمي وزهري وتيمي؛ ولكنه اسم اشتق لهم من التجارة والتقرش، فهو افخم اسمائهم واشرف انسابهم، وهو الاسم الذي نوه الله تعالى به في كتابه (٢)... فلما تركوا الفسزو لم تبقى مكسبة سوى التجارة، فضربوا في البلاد الى قيصر بالروم، والى النجاشي بالحبيشة، والى القوقس بحصر، وصاروا باجمعهم تجارا خلطا. وقد تعجب الناس من ثبات قريش وجزالة عطائهم واحتمالهم المؤن الغلاظ في دوام كسبهم من التجارة. فكان في ثبات جودهم العالي على جود الاجواد وهم قوم لا كسب لهم الا من التجارة عجب من العجب... فلوانه كان معهم من الفضل ما يبهز العقول ومن المجد ما تخرج فيه العيون، لما اصلح طبائعهم الشيء الذي يفسد جميع الامة... فلما كانوا بواد غير ذي زرع ويحتاجون الى الاقوات، واقامة القرى، لم يجدوا بدا من ان يتكلفوا ما يعيشهم ويصلح شأنهم، فاخذوا الايلاف (٣) ورحلوا

(١) الجاحظ، "رسالة في حجج النبوة"، رسائل الجاحظ، ٣، ٢٧٨-٢٨٠.

(٢) انظر سورة قريش.

(٣) الايلاف المذكور هو الذمام والعهد والاجارة. كان الاخوة الاربعة هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل، بنو عبد مناف، يقيمون قريشا. اما هاشم فانه اخذ حبلا من ملك الروم واخذ نوفل حبلا من كسرى واخذ عبد شمس حبلا من النجاشي =

الى الملوك بالتجارات . (١)

اي ان التجارة آنذاك لم تخل من مشقة وكانت تعرض صاحبها للمذلة * فإن
التاجر قد استشعر الذل وتغشى ثوب المذلة * (٢) وقد آتت التجارة - كما حدث
مع تجار الابلّة ومحتكرى اهل الحيرة الى ان ثلثت في اعراضهم وانتهكت من مرواّتهم ،
ولكن شيئا من ذلك لم يحدث لتجار قريش . فالتجارة اورثت في نفوس القرشيين من
السعة بقدر ما اورثت معاصريهم من الضيق . قال الجاحظ في ذلك :

" . . . ولو كانت علتهم في ذلك كعلة تجار الابلّة ، ومحتكرى اهل الحيرة ،
لثلثت دقة التجارة في اعراضهم ، ولنهلك سخف التريخ من مرواّتهم ،
ولصغر ذلك من اقدارهم في صدور العرب ، ولوضع من علّوهم عند اهسل
الشرق . وكيف وقد ارتحلت اليهم الشعرا كما ارتحلت الى الملوك العظام ،
فأسنوا لهم العطية ، ولم يفتروا عن غاية ، فسقوا الحبيج واقاموا القرى
لزواري الله تعالى ، وهم بواد غير ذي زرع . . . ولقد اورث ذلك صدورهم
من السعة بقدر ما اورث غيرهم من الضيق . ومن قاس تجار الكرخ وباعته ،
وتجار الاهواز والبصرة ، على تجار قريش ، فقد اخطأ مواضع القياس وجهل
اقدار العلل . فانظر كم بين علتهم وعلّة غيرهم . . . ومن العجب ان كسبهم
لما قلّ من قبل تركهم الغزو ، وما لوا الى الايلاف والجهاد ، لم يعترهم
من بخل التجار قليل ولا كثير ، والبخل طقة في الطباع . . . (٣)

وانسجما مع نظرة الجاحظ التي ترى تناسبا بين النبوة والوسط البشري الذي
استقبلها ، لاحظ الجاحظ ان النبي محمدا قد مارس التجارة الشائعة بين قومه

= واخذ المطلب حبلا من ملوك حمير . فكان تجار قريش يختلفون الى هذه الامصار
بحبال هو لا الاخوة ، فلا يتعرض لهم . انظر الجاحظ ، كتاب في العللين ،
رسائل الجاحظ ٤٧ : ٣ .

(١) انظر الجاحظ ، رسالة في مدح التجارة ، رسائل الجاحظ ٢٥٦ : ٤ ، كتاب
في الاوطان والبلدان ، المصدر نفسه ، ١١٦ : ٤ ، ١٢٦ : ١٢٧ . وكتاب في
العللين ، المصدر نفسه ، ٤٦ : ٣ .

(٢) الجاحظ ، كتاب في العللين ، رسائل الجاحظ ٤٩ : ٣ .

(٣) المصدر نفسه ، ٤٥ : ٣ ، ٤٧ : ٤ ، وكتاب الاوطان والبلدان ، المصدر نفسه ، ١١٦ : ١ .

ان " شخص فيها مسافرا ، وباع واشترى حاضرا ، " (١) قال :

" . . . وقد علم المسلمون ان خيرة الله تعالى من خلقه ، وصفية من عباده ، والموتى على وحيه ، من اهل بيت التجارة ، وهي معولهم ، وعليها معتمد هم ، وهي صناعة سلفهم ، وسيرة خلفهم ، وقد بلغتك بسالتهم ، ووصفت لك جلادتهم ، ونعتت لك احلامهم ، وتقرر لك سخاؤهم وضياقتهم ، وبذلهم ومواساتهم . وبالتجارة كانوا يعرفون . ولذلك قالت كاهنة اليمين : " لله در الديار ، لقريش التجار . " . . . وقد غير النبي برهة من دهره تاجرا . . . ولشبهة امره في البيع والشراء قال الشركون : (ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق) ، (٢) فاوحى الله اليه : (وما ارسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون في الاسواق .) (٣) فاخبر ان الانبياء قبله كانت لهم صناعات وتجارات (٤)

هكذا فضلت قريش سائر قبائل العرب باصلها وحسبها وحماستها وفماحتها وممارستها التجارة بسخا ، مع حسن ضيافة القبائل العربية التي كانت تقرلهم بالسيادة عليهم اثنا خدتها البيت العتيق .

٣ - ما يفضل به الهاشميون سائر قريش :

يلاحظ الدارس توزيع الخصال التي فضل بها الهاشميون القرشيين ، على فترات ثلاث : الفترة السابقة للنبو ، والفترة المعاصرة لها ، والفترة التي تلتها الس عصر الجاحظ .
(أ) - فضل الهاشميين في الجاهلية :
١ - فضل هاشم على بقية بني عبد مناف في الجاهلية :

من بني عبد مناف (٥) الاربعة ، المطلب ونوفل وعبد شمس وهاشم ، فضل الاخير سائر اخوته واليه تعود نسبة " هاشمي " اولفظ " الهاشميين " لكونه الجد الاعلى للنبي محمد . فهاشم هو والد عبد المطلب ، الجد المباشر لمحمد . وقد رأى الجاحظ ان خصلة من خصال الخير لم تكن اغلب او اظهر من اختها في نفس هاشم . قال :

- (١) الجاحظ ، " رسالة في مدح التجارة " ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ٢٥٦ .
- (٢) الفرقان : ٢ .
- (٣) الفرقان : ٢٠ .
- (٤) الجاحظ ، " رسالة في مدح التجارة " ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ٢٥٥ - ٢٥٧ .
- (٥) عبد مناف بن قصي والد هاشم . انظر ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، تحقيق ليفي بروفنسال (مصر : دار المعارف ، ١٩٤٨) ص ١٢ .

"... ولذلك قالوا : "احلم من الاحنف وما هو الا في حلم معاوية" ولم يقولوا : "هو احلم من هاشم" لان خصاله متساوية ، وخلال مشرفة متوازية ، وكلها كان غالبا ظاهرا وظاهرا غامرا ، وبعد فمن يستطيع ان يصف هاشما بالحلم دون غيره من الاخلاق والافعال حتى يخصه به دون كل شي فيه من الفضل ؟" (١)

وقد فضل هاشم اخوته حين سبقهم الى اخذ الايلاف لقريش . والايلاف هو ذلك العهد او الامان الذي يوفر حرية التحرك التجاري لقبيلة قريش (٢) . ولا يعني ذلك ان اخوة هاشم لم يكن لهم حظ فيه ، فهم جميعا "اصحاب الايلاف" (٣) الا ان هاشما له فضل السبق والبادرة . قال الجاحظ :

"... لقد اجمعت الرواة على ان اول من اخذ الايلاف لقريش هاشم ابن عبد مناف . فلما مات ، قام اخوه المطلب مقامه ، فلما مات ، قام عبد شمس مقامه ، فلما مات ، قام نوفل مقامه ، وكان اصغرهم . والايلاف هو ان هاشما كان رجلا كثير السفر والتجارة ، فكان يسافر في الشتاء الى اليمن ، وفي الصيف الى الشام ، وشرك في تجارته رؤسا القبائل من العرب ومن ملوك اليمن ، نحو العباهلة باليمن واليكسوم من بلاد الحبشة ونحو ملوك الروم بالشام ، فجعل لهم معه ريحا فيما يربح وساق لهم ابلات مع ابله . فكفاهم مؤونة الاسفار على ان يكفوه مؤونة الاعداء في طريقه ومنصرفه ، فكان في ذلك صلاح عام للغريقين ، وكان المقيم رابحا والسافر محفوظا . فاخصبت قريش بذلك وحملت معه اموالها واتاها الخير من البلاد السافلة والعالية وحسنت حالها وطاب عيشها . قال ابو عثمان : وقيل ان تفسير قوله تعالى : "وآمنهم من خوف" هو خوف من كان هو الاخوة يبرون به من القبائل والاعداء وهم مغتربون ومعهم الاموال ... وقد فسر قوم بغير ذلك ... وكيفما كان الايلاف ، فان هاشما كان القائم به دون غيره من اخوته . (٤)

(١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ٢ : ٩٢ ، وكتاب " فضل هاشم على عبد شمس " ، رسائل

الجاحظ (تحقيق حسن السندوي) ص ١٠٤ .

(٢) انظر : Encyclopaedia of Islam, new ed., s.v. "Ilāf," by Ed.

حيث يرد ان الايلاف الذي حققه هاشم ، تم مع امبراطور الروم لحماية قافلته الى سوريا وذلك سنة ٤٦٧ م .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) كتاب " فضل هاشم على عبد شمس " ، رسائل الجاحظ (تحقيق السندوي) ص ٧٠-٧١ .

والاشارة الثانية لهاشم واخوته في الجاهلية تجد ها في المصدر نفسه ، ص ١١٤ ، تضع ذرية بني عبد شمس وبني نوفل في مقدمة من عادى النبي ورسالته مع ان عبد شمس تؤام هاشم . انظر جمهرة النسب ، ص ١٢ .

ومن الفضل المأثور لهاشم قيامه بالرفادة والسقاية اى توفير الطعام والماء لزوار البيت . وقد عرف باسمه اثر تهشيم الطعام لهم دون سائر قومه من اهل مكة ، قال :
(والشعر لابن الزبيرى) :

كانت قريش بيضة فتفلقت فالبح خالصة لعبد مناف
الرائشون وليس يوجد رائش والقائلون هلم للاضياف
عمرو العلى وهشم الشريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف * (١)

٢ - فضل عبد المطلب بن هاشم على سائر اخوته في الجاهلية

مثلا فضل هاشم اخوته من بني عبد مناف ، فضل عبد المطلب بن هاشم سائر اخوته وهم : أسد ونضلة وابوصيفى (٢) . ولم يعن الجاحظ في جميع كتاباته بالاشارة اليهم ، باستثناء فضل التصاهر الكائن لفاطمة بنت اسد بن هاشم مع ابي طالب بن عبد المطلب ابن هاشم ، مما جعلها أمًا لجميع نسل ابي طالب (٣) .

وقد استقطب عبد المطلب بن هاشم قدرا كبيرا من الفضل الذى حظي به والده ، دون سائر بني هاشم والقرشيين والعرب وذلك لتمتعه ببطافة من الخصال عدها الجاحظ ، "ارهاصا لنهية النبي محمد وتأسيسا لما يريد الله به من الكرامة" * (٤) قال الجاحظ في الخصال التي فضل بها عبد المطلب ، جد النبي ، سائر قريش تحقيقا للغاية المذكورة التي كانت قريش تهيم لها :

"... وعبد المطلب سيد الوادى غير مدافع ، واجمل الناس جمالا وظهرهم جودا واكملهم كالا . فهو صاحب الغيل والطير الا باهمل ، صاحب زمزم وساقى الحجيج ... والشرف يتفاضل ، وقد اعطى الله

(١) كتاب " فضل هاشم على عبد شمس " ، رسائل الجاحظ ، ص ٦٨ .

(٢) ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، ص ١٢ .

(٣) الجاحظ ، " من كتابه في الاوطان والبلدان " ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ١٢٢ . وكتاب

" فضل هاشم على عبد شمس " ، المصدر نفسه (تحقيق السندوبي) ص ١٩ .

(٤) انظر الجاحظ ، كتاب " فضل هاشم على عبد شمس " ، رسائل الجاحظ ، (تحقيق

السندوبي) ، ص ٦٩ - ٧٠ .

عبد المطلب في زمانه ، وأجرى على يديه وأظهر من كرامته ما لا يعرف مثله الا لنبي مرسل ، وان في كلامه لا بهرمة صاحب الفيل (١) وتوعده اياه برب الكعبة ، وتحقيق قوله من الله ونصرة وعيده بحبس الفيل ، وقتل اصحابه بالطير الا باهبل وحجارة السجيل حتى تركوا كالعصف المأكول ، لاعجب البرهانات واسنى الكرامات ، وانما كان ذلك ارهاصا لنبو النبي صلى الله عليه وسلم وتأسيسا لما يريد الله به من الكرامة . (٢)

ومثما كانت خصال الخير مفاضة على والده هاشم بشكل متوازن ، كذلك هي الآن مع عبد المطلب الذي أصبح " سيد الوادى " . قال الجاحظ :

" . . . لم يكن لعبد المطلب في قريش نظير ، كما انه ليس لقريش في العرب نظير ، وكما انه ليس للعرب في الناس نظير . فعبد المطلب لم تكن فيه خصلة اغلب من اختها ، وتكاملت فيه وتساوت وتوافت اليه . فقالوا عند ذلك : " سيد الوادى " و " سيد قريش " ، واذا قالوا : " سيد قريش " ، فقد قالوا : " سيد العرب " ، واذا قالوا : " سيد العرب " ، فقد قالوا : " سيد الناس " ! (٣)

ان خصال عبد المطلب هذه ، لم تدفعه الى الكبر وفي هذا فضل لا ينكر :
" . . . ولم يدع الرهبة ملك قط الا فرعون . . . ولا كان فوق السلوك الاعظم والجله الا كاهن ، بل دون كثير منهم في الحسب وشرف الملك وكرم الرعية . ولو كان الكبر فضيلة ، وفي التيه مروءة ، لما رغب عنه بنو هاشم ، ولكان عبد المطلب اولى الناس منه بالخاية واحقهم باقص النهاية . " (٤)

(١) حسب النقوشات الحميرية ، ابرهة هو عبد لتاجر يمزنطي حكم جنوبي الجزيرة العربية بعد ان قام بثورة ضد قائده المعين من قبل ملك الحبشة ، وذلك قبل سنة ٥٣١ م . لكن المصادر الاسلامية كالطبرى وابن هشام نسبت اليه قيادته لحملة ضد مكة بهدف جعل كنيسة صنعا محطة للحجاج عوضا عن مكة وذلك سنة مولد النبي محمد عام ٥٧٠ م - انظر :
Encyclopaedia of Islam, new ed., s.v. "Abraha," by A.F. Beeston.

(٢) الجاحظ ، " كتاب فضل هاشم على عبد شمس " ، رسائل الجاحظ ، تحقيق السندوسي ، ص ٦٩ - ٧٠ .

(٣) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٢ : ٢٤٥ - ٢٤٦ .

(٤) الجاحظ ، " رسالة في النبل وذم الكبر " ، رسائل الجاحظ ، ج ٤ : ١٨٣ .

... . "هنيو هاشم هم الذين سبوا ذلك الحلف" حلف الفضول" وهم كانوا سببه والقائمين به دون جميع القبائل العاقدة له والشاهدة لأمه . فما ظنك بمن شهدء ولم يقم بأمره ؟ وهو اشرف حلف كان فسي العرب كلها ، واكرم عقد عقده قرين في قديمها وحديثها قبل الاسلام . ولفضل ذلك الحلف وفضل اهله ، سمي حلف الفضول . فكان هذا الحلف في بني هاشم ، وبني المطلب ، وبني اسد بن عبد العزى ، وبني زهرة وبني تميم ابن مرة ، تعاقدوا في شهر حرام قياما يتناسحون باكفهم ليكون مع المظلوم حتى يوروا اليه حقه ، ما بل بحر صوفة ، وفي التماسي في المعاش والتساهم بالمال ، يمنعون القوى من ظلم الضعيف ، والقاطن من غنى الغريب . قال الزبير بن عبد المطلب الذي نهض فيه ودعا اليه وحث عليه وهو الذي سبوا "حلف الفضول" :

حلفت لنعقدن حلفا عليهم
نسميه الفضول اذا عقدنا
ويعلم من يطوف البيت انّا

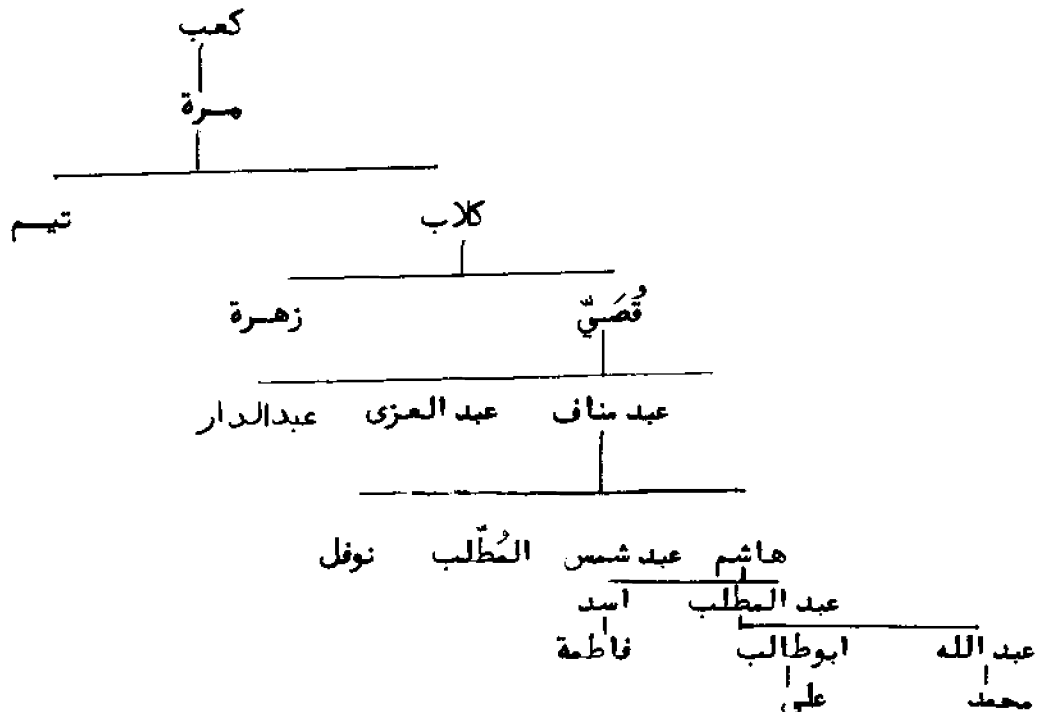
- (١) فيما يتعلق بنواعث تأسيسه راجع :
Encyclopaedia of Islam, new ed., s.v. "Ḥilf al Fuḍūl," by Charles Pellat.
 وفيه يذكر أن حلف الفضول كان تنظيمًا شائعًا في بني جرهم لأجيال عديدة وأن
 الزهير بن عبد المطلب عدّه نوطًا من الغروسية والنبل بعد حروب الفجار التسي
 سبقتة .
- (٢) الأسماء المذكورة هي من أشهر بطون قريش . فبني السطلب هم أولاد عم لبني هاشم ،
 انظر ابن حزم ، الجمهرة ، ص ٦٥-٦٦ . وأما بني اسد بن عبد العزى فهم أولاد
 عم لبني عبد مناف (المصدر نفسه : ١٠٨) . أما بني زهرة فيعود نسبهم إلى زهرة
 أخي قصي ، الجد المباشر لعبد مناف وعبد العزى وعبد الدار . (المصدر نفسه :
 ١١٩-١٢٦) . وأما بني تميم بن مرة فيرتقون في نسبهم إلى مرة بن كعب ، الجد
 الأعلى لكلاب ، والد قصي وزهرة ، وهما جدّا بني هاشم . (المصدر نفسه : ١٢٦-١٣١)
 وانظر الصورة : = =

وقد خص الجاحظ الزبير بن عبد المطلب ، الذي دعا الى حلف الفضول ،
بالشجاعة والجود واستشهد بأبيات له يقول فيها :

ولولا الحس لم يلبس رجال	ثياب اعزة حتى يموتوا
ثيابهم شمال او عبا	بها دنس كما دنس الحميت
ولكننا خلقنا اذا خلقنا	لنا الحبرات والمسك الفتيت
وكأن لو تبين لهم كلامنا	لقاتلنا لهم سسميت
تبين لنا القذى ان كان فيها	رصين الحلم يشربها هبيست
ويقطع نخوة المختال عنا	رقاق الحد ضربته صموت
بكى مجرب لا عيب فيه	اذا لقي الكريهة يستميت (١)

وانسجاما مع عادة العرب في التعالي على مصائبها ، فان ابا طالب بن عبد المطلب حين
عثره بعض نساء العرج ، اكد على ان ذلك لا ينقص من تدبير ولا يمنع من سوء . قال :

(=)



(=) راجع الجاحظ ، "كتاب فضل هاشم على عبد شمس" ، رسائل الجاحظ ، (السندوبي)

ص ٧٢ - ٧١

(١) الجاحظ ، كتاب فضل هاشم على عبد شمس ، رسائل الجاحظ ، تحقيق السندوبي ، ص ٧٣ .

قالت عرجت فقد عرجت فما الذي انكرت من جلدي وحسن فعالي ؟
وانا ابن بجدتها وفي صيا بها وسليل كل مسود مفضال
ادع الرقاحة لا اريد نساءها كيما افيد رقايب الاموال
واكف سهي عن وجوه جملة حتى تصيب مقاتل البخال (١)

اما صورة سائر ابنا عبد المطلب قبل الاسلام فيعكسها قول الجاحظ :
" . . . وكما روى الناس ، ان عبد المطلب ولد عشرة (٢) . . . وان عامر
ابن مالك لما رآهم يطوفون بالبيت كأنهم جمال جون ، قال : " بهو " ،
تنع مكة وتشرف مكة . " (٣)

(ب) فضل بني هاشم في الاسلام

لعله اصبح واضحا ان لفظ " بني هاشم " الذي حفلت به آثار الجاحظ ، يقصد به
ذرية عبد المطلب الذي استأثر بالفضل الهاشمي الذي شاع من بعده في معظم
ذريته ، وبالتحديد في النبي محمد وآل ابي طالب وآل العباس . قال :
" وليس على ظهر الارض هاشمي الا من ولد عبد المطلب بن هاشم (٤)
وان اول ما فضّل به بنو هاشم سائر قريش ، هو النبوة . قال الجاحظ :
" . . . ونحن ذاكرين - وبالله التوفيق - الخصال التي بانها بها
بنو هاشم دون قريش . فاول ذلك النبوة ، التي هي جماع خصال الخير ،
واعلاها وافضلها ، واجلها واسناها . " (٥)

-
- (١) الجاحظ ، كتاب البرصان والعرجان والعميان والحولان ، تحقيق مرسي الخولي
(القاهرة : دار الاعتصام ، ١٩٧٢) ص ١٨٩ .
(٢) فضلا عن الزبير بن عبد المطلب ، هناك عبدالله والد النبي ، وحمة وابوطالب
والعباس والحارث والمقوم وعبد العزى المعروف بابي لهب . راجع ابن حزم ،
جمهرة انساب العرب ، ص ١٣ .
(٣) الجاحظ ، " كتاب فضل هاشم على عبد شمس " ، رسائل الجاحظ ، تحقيق
السندوبي ، ص ١٠٨ .
(٤) الجاحظ ، " كتاب فضل هاشم على عبد شمس " ، رسائل الجاحظ ، تحقيق السندوبي ،
ص ٨٤ .
(٥) الجاحظ ، " كتاب الاوطان والبلدان " ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ١٢١ .

وقد منحت النبوة بني هاشم فضلاً تاريخياً تحقق لكل من ساهم مع النبي وآله
في دعوته ورسالته :

"... والصديق من صدقهم ، والفاروق من فرق بين الحق والباطل
فيهم ، والحواري حوارهم ... ولاخير الا فيهم ، ولهم ، ومنهمهم ،
ومعهم . والنجدة والخير فيهم ، والا نصار انصارهم ، والمهاجر من هاجر
اليهم ومعهم" (١)

والمعنى بهذا الفضل مباشرة من بني عبد مناف : بنو هاشم وبني المطلب ومن بني
عبد شمس وبني نوفل الذين ابطأوا عن الاسلام واهله ، فامتنع الفضل عنهم :

"... قد علم الناس ان عبد مناف ولد اربعة : هاشم والمطلب
وعبد شمس ونوفل . وان هاشم والمطلب كانا يدا واحدة ، وان عبد شمس
ونوفل كانا يدا واحدة . وكان ما ابطأ بهني نوفل عن الاسلام ابطأ اخوتهم
من بني عبد شمس ، وكان ما حث بهني المطلب على الاسلام فضل محبتهم
لهني هاشم ، لان امر النبي كان بيننا وانما كانوا يمتنعون عنه من طريق
الحسد والبغضة" (٢)

وحين يشهد الجاحظ بفضل بني هاشم في الاسلام ، يلاحظ ان فرعي الهيمت
الهاشمي - الطالب والعباسي - متساويان في ذلك الفضل ، نظراً لما قدما من العزائم
الثامة والادوات السكينة (٣) في الجود والرأى والعبادة والفقه والنجدة والجمال وسجاجة
الخلق . قال الجاحظ في ذلك :

"... وليس على ظهر الارض جواد جاهلي ولا اسلامي ولا عربي ولا عجمي
الا وجوده يكار يصير بخلا اذا ذكر جود علي بن ابي طالب ، وعبد الله
ابن جعفر بن ابي طالب ، وعبد الله بن العباس بن عبد المطلب . وان كان
الفخر والفضل في الجود والسماح ، فمن مثل هؤلاء في فضلهم ؟ اما
المنطق والخطب فقد علم الناس كيف كان علي بن ابي طالب عند التفكير

(١) الجاحظ ، رسالة في تفضيل بني هاشم على من سواهم ، مجلة لغة العرب ، ١٥٠٤ .

(٢) الجاحظ ، كتاب " فضل هاشم على عبد شمس " ، رسائل الجاحظ ، تحقيق السندوبي ،
ص ١١٣ - ١١٤ .

(٣) الجاحظ ، " رسالة تفضيل بني هاشم على من سواهم " ، مجلة لغة العرب ، ص ١٨٤ .
وتنص الرسالة نفسها نشره الدكتور محمد طه الحاجري في مجموع رسائل الجاحظ ،
(بيروت : دار النهضة العربية ، ١٩٨٣) .

والتعبير ، وعند الارتجال والبدئية ؛ وعند الاطناج والابجاز فسي
وقتيهما ، وكيف كان كلامه قاعدا وقائما . وكيف كان عبدالله بن العباس
- رضوان الله عليه - الذي كان يقال له الحبر والبحر . وان كان الفخر
بنبل الرأي وصواب القول ، فمن مثل عباس بن عبد المطلب ، وعبد الله
ابن العباس ؟ ويزهد علي بن ابي طالب ودينه يضرب الشل . وان عددتم
النسك من غير الطوك ، فابن انتم من علي بن الحسين زين العابدين ،
الذي كان يقال له علي الخير وعلي العابد . وابن انتم عن علي بن عبدالله
بن العباس ؟ . وابن انتم عن موسى بن جعفر
بن محمد ؟ وكان علي بن الحسين بن علي ، وعلي بن عبدالله بن جعفر ، وعلي
ابن عبدالله بن العباس ، عليهم السلام يصلون في كل ليلة الف ركعة ،
مع العلم والعلم وكظم الغيظ والصفح الجميل والاجتهاد السبر . فلوان
خصلة من هذه الخصال او داعية من هذه الدواعي عرضت لغيرهم لهلك
واهلك . واعلم انهم لم يمتحنوا بهذه المحن ولم يتحملوا هذه الهلوى ، الا
لما قدموا من العزائم الثابتة والادوات الممكنة ، ولم يكن الله ليزيدهم في
المحنة ، الا وهم يزدادون على شدة المحن ، خيرا وعلى التكشف ، تهديها
. واما الفقه والعلم والتفسير والتأويل ، فان ذكرتموه لم يكن لكم فيه
احد مثل علي بن ابي طالب ، وعبد الله بن العباس ، وزيد ومحمد ، ابني
علي بن الحسين بن علي ، وجعفر بن محمد ، الذي ملأ الدنيا علمه
وفقه . ويقال ان ابا حنيفة من تلامذته . ومن مثل علي بن ابي طالب في
النجدة والبسالة والشجاعة ؟ وقد وقع اتفاق اوليائه واعدائه على انسه
اشجع البشر . ومن مثل حمزة بن عبد المطلب اسد الله واسد رسوله
ومن مثل الحسين بن علي ؟ ومن لكم مثل محمد وابراهيم ابني عبدالله ؟
. وان كان الشرف والفخر في الجلال ، والكمال والبسطة في الجسم
وتمام القوام ، فمن كان كالعباس بن عبد المطلب ؟ ومن مثل علي بن محمد
الله بن العباس وولده ؟ وكان الحسن بن علي اصبح الناس وجها . كان
يشبه برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك عبدالله بن الحسين
المحض . اما الحسن بن علي ابن ابي طالب ، فاشبه الناس برسول الله
خلقا وخلقا . وان كان الفخر بالبشر وطلاقة الوجه وسجاجة الاخلاق
فمن مثل علي بن ابي طالب ؟ وما خفى به آل ابي طالب من الفضائل
ان اول هاشمي ، هاشمي الابوين كان في الدنيا ولد لابي طالب : لان
اباهم عبد مناف ، وهو ابو طالب بن شيبه وهو عبد المطلب بن هاشم وهو
عمرو وهو ابو شيبه (١)

(ج) فضل بني هاشم عصر الجاحظ

ويبدو ان فضل بني هاشم على سائر العرب مستمر في جميع العصور بما فيه عصر الجاحظ . قال :

"... ثم ليس في الارض احسن اخلاقا ولا اطهر بشرا ولا ادوم دماشة ولا ألين عريكة ولا اطيب عشيرة ولا ابعد من كبر منهم . والحدة لا يكساد بعد منها الحجازي والتهامي . الا ان حليمهم لا يشق غباره ، وذلك في الخاص . والجمهور على خلاف ذلك حتى تصير الى بني هاشم . فالحلم في جمهورهم وذلك يوجد في الناس كافة ولكننا نضمن انهم اتم الناس فضلا واقلهم نقصا وفيهم مع فرط جودهم وظهور عزهم من البشر الحسن والاحتمال وكرم التفاضل ما لا يوجد مع البخيل الموسر والذليل المتكسر اللذين يجعلان البشر وقاية دون الطال . وهم في كل اوقاتهم وجميع اعصارهم فوق من هم ، على مثل ميلادهم في الهيئة الحسنة والبروة الظاهرة والاخلاق المرضية . وليس في الارض قوم انطق خطيبا ولا اكثر بليغا ممن غير تكلف من بني هاشم". (١)

وللجاحظ رأى اضافي في معاصريه من بني هاشم يعكس فيه مفهومه لاثرا البيئية الجغرافية على الشكل والخلق . قال :

(=) انظر : الجاحظ ، "رسالة تفضيل بني هاشم على من سواهم" ، مجلة لفظة العرب ، ص ٤١٨ و ٤١٩ . وكتاب "فضل هاشم على عبد شمس" ، رسائل الجاحظ ، (السندوبي) ص ٨٢ - ٨٤ ، ٨٧ ، ١٠٥ - ١٠٧ ، ١١٠ ، ١١٥ ، وكتاب الاوطان والبلدان " في رسائل الجاحظ ، ج ٤ : ١٢٢ . والاشارة الاخيرة في النص

اشارة الى التصاهر الذي تم بين ابي طالب بن عبد المطلب بن هاشم وفاطمة ابنة اسد بن هاشم ، مما جعل فاطمة اما لجميع ولد ابي طالب : طالب وجعفر وعقيل وهلي . قال الجاحظ في هذا المعنى : " من يستطيع ان يسامي رجالا ولدهم هاشم مرتين ، من قبل ابيهم ومن قبل اسمهم ؟ "

. انظر : الجاحظ ، " كتاب فضل هاشم على عبد شمس ،

رسائل الجاحظ ، تحقيق السندوبي ، ص ١٠٩ .

(١) الجاحظ ، "رسالة في تفضيل بني هاشم على من سواهم" ، مجلة لغة العرب ، ص ٤١٧

و ٤١٩ .

وقد علمنا ان لجماعة بني هاشم طابعا في وجوههم يستبين به كرم العتسق
وكرم النجار ، وليس ذلك لغيرهم . ولقد كانت الاهواز تفسد هذا المعنى
على هاشمية الاهواز . ولولا ان الله غالب على امره ، لقد كانت طمست
على ذلك العتق ومحتة (١)

بهذه الصفات المذكورة لبني هاشم ، السهبة والرافقة لنبوة محمد ، اصبح بنسو
هاشم كما يقول الجاحظ :

"... موضع العذار من خد الفرس ، والعقد من لبة الكعب ، والجوهر
المكنون ، والذهب المصفى ، وموضع المحة من البهضة ، والعين مسن
الرأس ، والروح من البدن . وهم الانف المقدم والسنام الاكبر ، والدرة
الزهراء ، والروضة الخضراء ، والذهب الاحمر . . . (٢)

بيد انه لم يفت الجاحظ الاشارة الى ان هؤلاء القوم ، كجميع البشر ، يخطئون
ويصيبون ، الا ان حظهم من النقص دون حظ سائر البشر . قال :
"... ثم لا تجد عند افسدهم شيئا من المنكر ، الا رأيت في غيره مسن
الناس اكثر منه من شايع القبائل وجمهور العشائر . (٣)

٤- ما يفضل به محمد العالمين

رأى الجاحظ ان فضل محمد على العالمين يأتي من كونه قد "بعث من خيرة
قريش . (٤) فيها ان بني هاشم افضل قريش ، وقريش افضل العرب ، والعرب افضل الامم ،
فان محمدا بالتالي يفضل العالمين . وتفسير ذلك لديـــــــــــــــــه ان محمدا خُصَّ

(١) الجاحظ ، "كتاب الاوطان والبلدان" ، رسائل الجاحظ ، ج ٤ : ١٣٥-١٣٦ .

(٢) انظر : الجاحظ ، "رسالة مناقب الترك" ، رسائل الجاحظ ، ١ : ١٣ .

(٣) انظر : "رسالة في تفضيل بني هاشم على من سواهم" ، مجلة لغة العسرب ،
ص ٤١٧ .

(٤) الجاحظ ، "كتاب فضل بني هاشم على عبد شمس" ، رسائل الجاحظ ، تحقيق
السندوي ، ص ٨٢ .

بالنبوة " التي تشل جماع خصال الخير واعلاها وافضلها " (١) فاصبح كما يقول الجاحظ " خيرة الله تعالى من خلقه وصفه من عباده والمؤمن على وجهه " (٢) لانه اوفر الخلق حظا في التحلي بما قسم الله من خيرات لعباده . قال :

" . . . ولم يقسم الله مذهبا رضى ، ولا خلقا زكيا ، ولا عملا مرضيا الا وحظه منه اوفر الحظوظ ، وقسمه فيه اجزل الاقسام " (٣)

وفي مفهوم الجاحظ ان محمدا قد فضل العالين لامتعة بطائفة من الخصائص الخلقية لم يشرك فيها بشر ؛ اما تفوقه الخلقي فواضح في قول الجاحظ :

" . . . وآية اخرى لا يعرفها الا الخاصة . . . وهي الاخلاق التي لم تجتمع لبشر قط قبله ، ولا تجتمع لبشر بعده . . . وذلك انا لم نر ولم نسمع لاحد قط كصبره ، ولا كعلمه ، ولا كوفائه ، ولا كرهده ، ولا كجوده ، ولا كجودته ، ولا كصدق لهجته ، وكرم عشرته ، ولا كتواضعه ، ولا كعلمه ، ولا كحفظه ، ولا كصمته اذا صمت ، ولا كقوله اذا قال ، ولا كعجيب منشئه ، ولا كقلته تلونه ، ولا كعفوه ، ولا كدوام طريقته وقلة امتثاله . . . فلا يستطيع منافق ولا زنديق ولا دهرى ، ان يحدث ان محمدا عليه السلام جال جولة قط ، ولا فرقة قط ، ولا خام عن غزوة ، ولا هاب حرب من كائنه . (٤)

وقد اكد الجاحظ ايضا على تفوق النبي الباني حين قال :

" . . . وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم يسبقه اليه عربي ، ولا شارك فيه اعجمي ، ولم يدع لاحد ، ولا ادعاء احد ما صار مستعملا وشاعرا سائرا . . . وهو الكلام الذى قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصنعة ، ونزه عن التكلف ، وكان كما قال الله تبارك وتعالى : قل يا محمد (وما انا من المتكلمين) . . . (٥) وقد استعمل البسيط في موضع البسط ، والمقصود في موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشي . . .

-
- (١) الجاحظ ، " كتاب الاوطان والبلدان " ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ١٢١ .
 - (٢) الجاحظ ، رسالة في حجج النبوة ، المصدر نفسه ، ٣ : ٢٥٧ .
 - (٣) الجاحظ ، رسالة مدح التجارة ، المصدر نفسه ، ٤ : ٢٥٥-٢٥٦ .
 - (٤) الجاحظ ، " رسالة في حجج النبوة " ، المصدر نفسه ، ٣ : ٢٨٠-٢٨١ .
 - (٥) سورة ص : ٨٦ .

فلم ينطق الا عن ميثاق حكمة ، ولم يتكلم الا بكلام قد حَقَّ بالعصمة
وشيد بالتأييد ويسر بالتوفيق . وهو الكلام الذى اتقى الله عليه المحبة ،
وفشاء بالقبول ، وجمع له بين السهابة والحلاوة وبين حسن الافهام وقلة
عدد الكلام . . . لم يقم له خصم ولا افحمه خطيب . . . لا يحتج الا بالصدق
ولا يطلب الفلج الا بالحق . . . لم يسمع الناس بكلام قط اعم نفعسا ،
ولا اقصد لفظا ، ولا احسن موقعا ، ولا افصح معنى ، من كلامه صلى الله
عليه وسلم . . . والذى يدلُّك على ان الله عز وجل قد خصه بالايجاز
وقلة عدد اللفظ ، مع كثرة المعاني ، قوله صلى الله عليه وسلم : " نصرت
بالصبا ، واعطيت جوامع الكلم " . (١)

وقد لاحظ الجاحظ ان تفوق النبي الهباني والخلقي كان يخضع لاشراف الهبي
محكم بدلالة قول النبي : " نقلت من الا صلاب الزاكية الى الارحام الطاهرة ، وما افترقت
فرقتان الا كت في خيرهما " . (٢) وقد فصل الجاحظ كيفية ذلك الاشراف وتلك التهيئة
لجعل الله النبي مستودع آياته ، بقوله :

" . . . فنزَّه الله رسوله ، ولم يعلمه الكتاب والحساب ، ولم يرَّقه في صنعة
الكلام ، والتعميد لطلب الالفاظ ، والتكلف لاستخراج المعاني ، فجمع
له باله كله في الدعا الى الله ، والصبر عليه ، والسجادة فيه ، والانبات
اليه ، والسيل الى كل ما قرب منه ، فاعطاء الاخلاص الذى لا يشبهه ريبا ،
واليقين الذى لا يطرره شك ، والعزم المتكمن ، والقوة الفاضلة . . . فانما
نقصه ليزيده ، ومنعه ليعطيه " . (٣)

(١) انظر البخارى ، باب التعبير : ١١ ، حيث ورد الحديث بلفظ " اوتيت جوامع
الكلم " والباب نفسه : ٢٢ ، حيث ورد بلفظ " بعثت بجوامع الكلم " . انظر :
ونسك ، أ.ى . ، ونسك ، ب.ى . ، في المعجم المفهرس لالفاظ الحديث
النبوى ، (ليدن : بريل ، ١٩٦٧) ٦ : ٨٥ . وانظر الجاحظ ، البيان والتبيين ،
٢ : ١٧ ، ١٨ ، ٢٨ .

(٢) الجاحظ ، " كتاب فضل هاشم على عبد شمس " ، رسائل الجاحظ ، تحقيق
السندوي ، ص ٨٢ . ونص الحديث : " ثم فرقهم فرقتين فجعلني من خير الفرقتين " .
في مسند احمد ابن حنبل ، الباب الرابع : ١٦٦ . او بلفظ " فجعلني من خيرهم " .
في سنن الترمذى باب المناقب : ١ . انظر مادة " فرق " ، المعجم المفهرس لالفاظ
الحديث النبوى ، ج ٥ ، ١٣٦ .

(٣) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ٤ : ٣٠ - ٣٢ .

وإذا كان الله قد صرف النبي عن الأمور التي كان يتكلفها قومه ويتنافسون فيها ،
تمييزاً للنبوّة عن الشعر ، فإن ذلك لم يمنع النبي أن يصبح ، بالنبوّة ، أفصح العرب
لأن حكمة الله في رسالاته تقتضي تناسبا بين النبوّة والوسط البشري الذي يستقبلها ،
لكي يكون التحدى من جنس ما تفوق به ذلك الوسط . قال الجاحظ :

" ولما كان اعجب الأمور عند قوم فرعون السحر ، . . . بعث الله موسى
عليه السلام على إبطاله وتوهميه ، وكشف ضعفه وظهره ، ونقض أصله . . .
مع ما أعطى الله موسى عليه السلام من سائر البرهانات وضروب العلامات ،
وكذلك زمن عيسى عليه السلام . . . وكذلك دهر محمد صلى الله عليه وسلم ،
كان أغلب الأمور عليهم واحسنها عندهم واجلها في صدورهم ، حسن
البيان ، ونظم ضروب الكلام ، مع علمهم له وانفرادهم به . فحين شاعت
البلاغة فيهم وكثر شعراؤهم وفاق الناس خطباؤهم ، بعث الله عز وجل ،
فتحدهم بما كانوا لا يشكون انهم يقدرون على اكرامه . . . وكان ذلك
من اعجب ما آتاه الله نبيا قط مع سائر ما جاء به من الآيات ، ومن ضروب
البرهانات . ولكل شيء باب ومأتى ، واختصار وتقريب . فمن احكم الحكمة
ارسال كل نبي بما يفهم اعجب الأمور عندهم ، ويبطل اقوى الأشياء فسي
ظنهم . . . وان محمدا صلى الله عليه وسلم مخصوص بعلامة لها فسي
العقل موقع ، كموقع فلق البحر من العين ، وذلك قوله لقريش خاصة ،
وللعرب عامة ، مع ما فيها من الشعراء والخطباء والبلغاء ، والدهاة
والحلماء ، واصحاب الرأي والمكيدة ، والتجارب والنظر في العاقبة :
ان عارضتموني بسورة واحدة فقد كذبت في دعواي ، وصدقت في تكذبي . " (١)

وقد عبر الجاحظ عن التناسب بين المعجزة والوسط البشري الذي نزلت فيه
بقوله ايضا :

" واعلم ان الله تعالى لم يرسل رسولا ولا بعث نبيا الا من كان فضله
في كلامه وبيانته على فضل المبعوث اليه . فكان النبي صلى الله عليه وسلم
افصح العرب لسانا ، واحسنهم بيانا ، واسهلهم مخارج للكلام واكثرهم
فوائد من المعاني ؛ لانه كان من جماهير العرب : مولده في بني هاشم ،

(١) الجاحظ ، " رسالة حجج النبوّة " ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ٢٧٣ و ٢٧٨ - ٢٨٠ .

واخواله من بني زهرة ، ورضاعه في بني سعد بن بكر ، ومنشؤه في قريش . . .
وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : " انا افصح العرب بيد اني من قريش ،
ونشأت في بني سعد بن بكر . " (١) ولولم يكن ما عددنا من هؤلاء الأحياء
الا قريش وحدها لكان فيها مستغنى عن غيرها . . . لان قريشا افصح
العرب لسانا وافضلها بياناً ، واحضرها جواباً ، واحسنها بديهة ، واجمعها
عند الكلام قلباً . " (٢)

وساخص به محمد انه ارسل للعالمين ، في حين ان الرسالات التي سبقته كانت
تخص امة دون غيرها . وهذه النقطة من المحلية الى العالمية هي فضل نبوة محمد بن
عبدالله الذي اصبح رسولا لجميع الامم ؛ وبذلك يكون قد فتح بعدا جديدا من ابعاد
الرسالات الساوية مع الاجناس والامم . قال الجاحظ :

" . . . والله عز وجل قد بعث محمدا صلى الله عليه وسلم الى العجم فضلا
عن العرب . . . وقد جعل الله قوم كل نبي هم السلفين والحقبة . الا ترى اننا
نزعم ان عجز العرب عن مثل نظم القرآن حجة على العجم ، من جهة اعلام
العرب العجم انهم كانوا من ذلك عجزا . وقد قال النبي صلى الله عليه
وسلم : خصصت بامور : منها اني بعثت الى الاحمر والاسود . . . وجعلت
لي الارض طهورا . " (٣) فدل بذلك على ان غيره من الرسل انما كان يرسل
الى الخاص . وليس يجوز لمن عرف صدق ذلك الرسول ، من الامم ، ان
يكذبه ، وينكر دعواه . . . هذا فرق من بعث الى البعض ومن بعث الى
الجميع . " (٤)

وبذكر الخصال التي فضل بها محمد العرب والعجم ، تكون قد انتهينا القسم المتعلق
بنظرية الجاحظ في حسنات العرب ونأتي الى عرض آرائه في مساوي العرب .

-
- (١) لم يرد الحديث في كتب الحديث النبوي ، لكنه ورد في لسان العرب ، مادة " بيد " ،
(بيروت : دار صادر ، ١٩٥٥) ، ٣٠ : ٩٩ نغلا عن ابن الاثير في النهاية في غريب الحديث .
(٢) الجاحظ ، " رسالة في تفضيل النطق على الصمت " ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ٢٣٧ -
٢٣٨ .
(٣) نص الحديث في الجامع الصحيح لمسلم بن الحجاج ، باب الساجد : ٣ ، ومسنود
الداودي ، باب السير : ٢٨ . انظر : المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي .
(٤) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ٣ : ٢٩١ - ٢٩٥ ، ٢٩٦ .

ان الجاحظ في مآخذه على العرب انطلق من الجاهلية مروراً بالاسلام وحكم
بني امية وبني العباس . ونعرض آراءه في كل على حدة .

١ - مآخذه على عرب الجاهلية :

من الخصائص الاجتماعية التي انتقدها الجاحظ في عرب الجاهلية ، اتصافها
بالحمية والجفاء ، وفلظ الطباع والوحشية والعرضية والمجرمية والمنهجية . (١)

- (١) الجاحظ ، " كتاب النبل والتبذل وذم الكبر " ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ١٧٥ - ١٧٦ .
والمقصود بالحمية حمية عرب الجاهلية في تعظيم الرؤساء ، وحرب الاخوة . راجع
" رسالة الجاحظ في الحكمين وتصويب امير المؤمنين علي بن ابي طالب " مجلة
الشرق ، ص ٤٢٦ و ٤٣٣ . واما جفاء العرب والاعراب فقد ذكره الجاحظ في
موضعين : الاول حين ميز قريشا عن سائر العرب بقوله : " ومن خصالهم انهم
لم يشاركوا العرب والاعراب في شي " من جفائهم وظلّ شهواتهم . وكانوا لا يأكلون
الضباب ولا شيئا من الحشرات . " انظر : كتاب في الاوطان والبلدان ، " رسائل
الجاحظ ، ٤ : ١١٧ . والثاني في نقده لعرب عصره حين قال : " وهو لا الجفاة
والاعراب المحرمين ومن قل فقهه في الدين اذا خطبوا على المنابر فكأنهم فسسي
طباع اولئك الجاننين . " البيان ، ٢ : ٢٣٦ .
وبلاحظ ان الجاحظ نظر الى اعراب الجاهلية واعراب عصره نظرة واحدة اعتادا
على قول النبي : " من سكن البادية جفا . " ولكن يجب التفريق بين الخصال
الوحشية للاعراب - التي هي مادة لمآخذ الجاحظ هنا - وبين الخصال الانسانية
الرقية لقريش التي لم تشارك الاعراب في خصالها . ويجب التمييز ايضا بين مفهوم
الجاحظ لفضيلة شظف المعيش - المتمثلة في اشارة الجاحظ السابقة الى قلّة
طعام العرب وصبرها وجهادها (انظر الخلا ، ٩٣ ، ٩٨ ، ١٠٦ ، ٢٠١) -
وسمات الجفاء وظلّ الطباع والمنهجية والمجرمية التي شاعت بين الاعراب .
والخلاصة ان الجاحظ لم يحتكر مناقب الخير في قريش دون سائر العرب لان
الجاحظ يرى ان من العرب من تميز بمناقب قريش . قال : لان قريشا والعرب
قد يستون في مناقب كثيرة . قد يلغى في العرب الجواد الهر ، وكذلك الحلیم
والشجاع . " انظر : الجاحظ ، " كتاب الاوطان والبلدان ، " رسائل الجاحظ ،
٤ : ١١٤ .

وقد خص الجاحظ العادات الدينية لعرب الجاهلية وسائر الامم بدراسة خاصة (١) اظهر فيها استواء تهافت الامم في هذه المسألة ، نذكر منها ظواهر الطيرة والايان بالهاتف ، وعبادة الحجارة التي سموها آلهة . اما الطيرة (٢) لدى العرب ، فقد عقد الجاحظ فصلا طويلا في هذه الظاهرة توجه بايراد نص لاستاذ النظام تضمن عدم ايمان الاخير بها لانها "باطل" (٣) .

واما ظاهرة ايمان العرب بالهاتف ، فان الجاحظ لم يملك الا السخرية مسن اولئك "الاعراب واشياء الاعراب ، الذين لا يتحاشون من الايمان بالهاتف" (٤) ومن ان للهاتف شعرا ان الاعراب "تزعج ان مع كل فعل من الشعراء شيطانا يقول الفحل على لسانه الشعر" (٥) وقد تبني الجاحظ موقف استاذ المعتزلي النظام (٦) ، في تحليل ظاهرة مكالة الاعراب للجن وعزيف الجن لهم . قال في تفسير ذلك :

" واصل هذا الامر وابتدأوه ، ان القوم لما نزلوا بلاد الوحش ، عطلت فيهم الوحشة . ومن انفرد وطال مقامه في البلاد والخلاء ، والبعد من الانس ، استوحش . . . واذا استوحش الانسان تمثل له الشيء الصغير في صورة الكبير ، وارتاب ، وتفرق ذهنه ، وانتقضت اخلاطه ، فرأى ما لا يرى ، وسمع ما لا يسمع . . . ثم جعلوا ما تصور لهم من ذلك شعرا تناشدوه ، واحاديث

-
- (١) الجاحظ ، "كتاب الاخبار وكيف تصح" ، المجلة الآسيوية .
(٢) اصل التطير في رأى الجاحظ من الطير اذا مر بارحا او سانحا (من اليمين الى الشمال او العكس) حتى صارت العرب اذا عابثت الاهور من الناس او البهائم تطيرت عندها ، كما تتطير من الطير اذا رأتها على تلك الحال . انظر : الجاحظ ، كتاب الحيوان ٣ : ٤٤٣ - ٤٥٣ .
(٣) المصدر نفسه ٣ : ٤٥٣ .
(٤) الجاحظ ، كتاب الحيوان ٦ : ٢٠٢ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ .
(٥) الجاحظ ، المصدر نفسه ٦ : ٢٢٥ والفحل من الشعراء "الستفوق على غيره" . وفحول الشعراء هم - الذين غلبوا بالهجا - من هجاهم وكل من عارض شاعرا فغلبه . راجع لسان العرب ولاهن منظور ، مادة فحل .

- (٦) الجاحظ ، المصدر نفسه ٦ : ٢٤٨ . ويشرح الجاحظ الفرق بين الغيلان والسعلاة بقوله : "السعلاة هي كما يزعم الاعراب الواحدة من الجن قبل ان تتغول اي تتلوى لتفتن السفار" . انظر الحيوان ٦ : ١٥٨ .

توارثوها فازدادوا بذلك ايمانا ، ونشأ عليه الناشئ* ، ورثي به الطفل ،
فصار احدهم حين يتوسط الفيا في ... عند اول وحشة وفزعة ، ونفسه
صياح يوم ومجاوبة صدى ... يقول : رأيت الغيلان ، وكلمت السعلاة ! ثم
يتجاوز ذلك الى ان يقول : قتلتها ... ورافقتها ... وتزوجتها ...
وما زادهم في هذا الباب ، واغراهم به ، ومد لهم فيه ، انهم ليس يلقون
بهذه الاشعار وبهذه الاخبار الا اعرابيا مثلهم ، والا طاميا لم يأخذ نفسه
قط بتمييز ما يستوجب التكذيب والتصديق او الشك ... (١)

والملاحظ ان للاستيعاش وجهين في نظر الجاحظ : الوجه السليم كما رأينا ،
وهو بالقدر الذي ينحرف بالانسان الى مساوى* العزلة عن المجتمع ، والوجه الايجابي
الذي يعكسه النص التالي ، لانه يساعد على تفتق الذهن وصفا* القريحة . قال
الجاحظ :

* والعرب كانوا سكان فياف وتربية العرا* . اذهان حداد ونفوس مفكرة ...
فحين حملوا حدهم ووجهوا قواهم لقول الشعر وبلاغة المنطق وتشقيق
اللغة ... بعد الاستدلال بالآفاق وتعرف الانوا* ، والا اعتبار بكسل
محسوس ، يلفوا في ذلك الغاية وحازوا كل امنية* (٢)

وقد انكر الجاحظ على الاعراب زعمهم ان للغيلان (٣) قدرة على اعتراض السفار
او قدرة على تغيير العقل . قال الجاحظ :

* انهم لم يسلطوا على الصحيح العقل ، ولو كان ذلك اليهم لبدأوا بعلي*
ابن ابي طالب ، وحمزة بن عبد المطلب وياحي بكر وعمر في زمانهم* ،
وبغيلان والحسن في دهرهما ، وهو اصل وعمر في ايامهما* (٤)

-
- (١) الجاحظ ، المصدر نفسه ٦٤ : ٢٤٩ - ٢٥١ .
(٢) الجاحظ ، رسالة في مناقب الترك ، رسائل الجاحظ ج ١ : ٧٠ .
(٣) اللفظ مشتق من الجان اذا تغول اي طعن وتشكل ليفتن السفار ، انظر :
الجاحظ ، كتاب الحيوان ٦٠ : ١٥٨ .
(٤) المصدر نفسه ٦٤ : ١٦٠ .

وقد جمع الجاحظ سائر عيوب عرب الجاهلية لتعريف الناس "تفاوت ما بين حال العاقل في دنياه ودينه" (١) فقال :

"... وهم مع ما حكيت لك من صحة العقل وكرم الطبيعة وحسن البهائم وسعة المعرفة وجودة الرأي وشدة الانفة ، يعبدون الحجارة ويحلفون بها ويتحامون كسرهما وتهجينها وينكسون لها ويدعونها آلهة ويخاطبونها... ثم مع ذلك ربما رموا بها واتخذوا سواها... ويقولون : ايها رجل قتل فلم يطلب عليه بدمه خلق من دماغه طير يسمى هامة ؛ فلا يزال يزقو على قبره وينعي عليه ، عجز عليه ، حتى يبعث ؛... ثم كانوا يستسقون للميت... وكانوا اذا اجدهت بلادهم فارادوا الاستطارة اخذوا بعيرا اوراق فشدوا في ذنبه العشر او السلع وصعدوه في الجبل واشعلوا في ذنبه النار ودعوا وتضرعوا ، ويزعمون : انهم ان لم يفعلوا ذلك لسم يستجب الله منهم... وكان الرجل منهم اذا غزا عقد خيطا في ساق شجرة ، فاذا رجع ورآه منحلا فقد خانت قعيدته بزعمهم ، وان رجس وجوده بحاله فقد حفظت نفسها له . قال الشاعر :

هل ينفعنك اليوم ان همت بهم كثرة ما توصي وتعقاد الرتم ؟
والرتم اسم الخيط بعينه . وكانوا يقولون : اذا احب الرجل المرأة واحبته ، فان لم يشق عليها برقعها وتشق عليها رداءه فسد حبها ، وان فعلا ذلك دام حبها ، قال عبد بنى الحساس :

وكم قد شققنا من رداء ومزور ومن برقع عن طفلة غير عانس
اذا شق برد شق بالبرد مثله ودالك حتى كلنا غير لابس

هذا مع ايمانهم بالعدوى والجن وتلون الخيلان... ومع مذهبهم في الحامي والبحيرة والوصيلة والسائية مع امور كثيرة لا يحتاج الى ذكرها ؛ وانما اردنا من ذلك ان يعرف الناس تفاوت ما بين حال العاقل في دنياه ودينه . فاذا صار الى التكذيب والتعديق والايمان والكفر صار الى غير الذي كان عليه من التمييز" (٢)

(١) الجاحظ ، "كتاب الاخبار وكيف تصح" ، المجلة الآسيوية ، ص ٩٤ - ٩٧ .

(٢) المصدر نفسه .

ونختم حديثنا عن رأى الجاحظ في عرب الجاهلية بإيراد القطعة التالية

حول عادة بعض العرب في نسبة عار الفرد الى المجموع :

" والعرب اذا وجدت رجلا من القبيلة قد اتى قبيحا الزمت ذلك القبيلة كلها ، كما تمدح القبيلة بفعل جميل وان لم يكن ذلك الا بواحد منها ، فتهجو قريشا بالسخينة وبعد القيس بالتمر وذلك عام في الحيين جميعا وهما من صالح الاغذية والاقوات ، كما تهجو بأكل الكلاب والناس وان كان ذلك من رجل واحد . " (١)

والجاحظ ، كما يهدو من النص اعلاه لا يروقه اطلاق التعميمات السهنية على سببي حوادث جزئية وكأننا يدعو ان تكون العرب اكثر استقراء لتفاصيل الواقع الذي تمدحه او تهجوه ، قبل اطلاق الحكم التعميمي عليه .

(١) الجاحظ ، البخلاء ، ص ٢١٥ .

اخذ الجاحظ على عرب صدر الاسلام الذين عادوا النبي وآذوه ، و اشار الجاحظ الى واقع عداوتهم للنبي مستعينا بنص الكفة التي قالها عبدالله بن عبدالله بن الاهتم لعمر بن عبدالعزيز . قال :

" اما بعد فان الله خلق الخلق غنيا عن طاعتهم ، آمنا لمعصيتهم ، والناس يومئذ في المنازل والرأى مختلفون ، والعرب بشر تلك المنازل ، اهل الوهر واهل المدر ، تحتاز دونهم طيبات الدنيا ورفاغة عيشها : ميتهم في النار وحيهم اعي . مع ما لا يحصى من الرغوب عنه ، والمزهود فيه . فلما اراد الله ان ينشر فيهم رحمة ، ويسبغ عليهم نعمته ، بعث اليهم رسولا منهم عزيزا عليه ما عنتوا ، حريصا عليهم ، بالسوء من روءى وفاقا رحيم ، فلم يمنعهم ذلك من ان جرحوه في جسده ولقبوه في اسمه ، ومعه كتاب من الله ناطق ، مبرهان من الله صادق " (١)

ويكشف الجاحظ عن ملامح اخرى لتلك العداوة بعد ان تحداهم النبي بمعارضة القرآن . قال :

" وبعد ، فقد هجوه من كل جانب . . . وحاجوه في الواقع ، وخاصوه فسي المواسم ، وبادوه العداوة ، وناصره الحرب . . . وهم اثبت الناس حقدا وابعدهم مطلبا واذكرهم لخير او لشر . . . وهل يذعن الاعراب واصحاب الجاهلية للتقريع بالعجز ، والتوقيف على النقص ، ثم لا يبذلون مجهودهم ، ولا يخرجون مكنونهم وهم اشد خلق الله عز وجل انفة ، واغرض حمية ، واطلبه بطائلة " (٢)

اما اصحاب التحدى القرآني الذين " بذلوا النفوس والاموال وخرجوا من ديارهم في اطقا امره وفي توهين ما جاء به " (٣) فهم لم يخرجوا عن كونهم جماعة " الشعراء " والخطباء

(١) الجاحظ ، البيان ، ٢ : ١١٨ .

(٢) الجاحظ ، رسالة في حجج النبوة ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ٢٧٤ - ٢٧٧ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٧٤ .

والبلغاء والدهاة والحلماء واصحاب الرأي والسكيدة والتجارب والنظر في العاقبة^(١). ولكن جميع هؤلاء ، من قريش خاصة والعرب عامة ، عجزوا عن معارضة فكان المعجز فيهم فاشيا ظاهرا^(٢) مع " ان الكلام كان سيد عليهم ، وتحبيرة اهلون من القتال ومن اخراج المال^(٣) . ومع ذلك ، فانهم استمروا في الطعن في القرآن ، دون جدوى " مع كثرة عددهم وشدة عقولهم واجتماع كلمتهم " (٤) وفي هذا مأخذ واضح عليهم . قال :

" ولم يقل : ان القوم قد تركوا مسألت في القرآن والطعن فيه
وبذلك على ذلك قوله عز وجل : (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) . وقوله عز ذكره : (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا او بدله) ، وقوله تعالى جل ذكره :
(وقال الذين كفروا ، ان هذا الا افك افتراء واعانه عليه قوم آخرون)^(٥)

وقد رد الجاحظ سوء تصرفهم تارة الى الانفة والسحمة والكبر وطورا الى الحسد^(٦). اما الكبر ، فقد افرد الجاحظ رسالة في ذمه ، حلل فيها مساوي الكبر الذي رآه مفتاح المعاصي وشر العيوب . قال :

" والكبر من جميع الناس قبيح ، ومن كل العباد مسخوط ، الا انه عند الناس من عظماء الاعراب ، واشباه الاعراب اوجد ، وهولهم اسرع ، لجفائهم ومعددهم من الجماعة ، ولقلة مخالطتهم لاهل العفة والورعة ، والادب والصنعة وما ظنك بشي^{*} العجب شقيقه والبهذخ صديقه ، والنفج أليفه ، والصلف عقيدته وشر العيوب ما كان مضئا بعيوب ، وشر الذنوب ما كان علة لذنوب . والكبر اول ذنب كان في السماوات والارض ، واعظم جرم كان من الجن والانس واشهر تعصب كان في الثقلين . عنه لج اهلين فسي الطفيان وعنا على رب العالمين وخطأ ربه في التدبير ، ومن اجله اخرج من الجنة وقيل له : (ما يكون لك ان تتكبر فيها)

-
- (١) المصدر نفسه ، ص ٢٧٣ .
 - (٢) المصدر نفسه ، ص ٢٧٦ .
 - (٣) المصدر نفسه ، ص ٢٧٦ و ٢٧٧ .
 - (٤) المصدر نفسه ، ص ٢٧٧ .
 - (٥) المصدر نفسه ، ٢٧٦ والآيات هي على التوالي : الفرقان : ٣٢ وهود : ١٥ ، والفرقان ٤ .

(٦) كما سنذكر في القسم المتعلق بمأخذ الجاحظ على بني امية .

معصيته اخرج آدم من الجنة ، وشهر في كل افق وامة . ومن اجله نصب
العداوة لذريته وتفرغ من كل شي* الا من اهلك نسله . . . والكبر هو
الذي زين لاهليس ترك السجود ، ووهبه شرف الانفة . . . وحبب اليه
المخالفة وآتسه بالوحدة والوحشة ، وهون عليه سخط الرب . . . وزين
له قول الزور ، وزهده في جوار الملائكة ، وجمع له خلال السوء ، ونظم له
خلال الشر ، لانه حسد والحسد ظلم ، وكذب والكذب ذل ، وخسدة
والخدعة لوهم . . . والكبر معنى ينتظم به جماع الشر ، والتواضع معنى
ينتظم به جماع الخير . . . ولو كان الكبر لا يعتري الا الشريف والجميل ،
او الجواد ، او الوفي او الصدوق ، كان اهلون لامره . . . ولكننا نجده في
السفلة كما نجده في العلية ، ونجده في القبيح كما نجده في الحسن ،
وفي الدميم كما نجده في الجميل . . . وفي الذي ذى الجزية . . . كما نجده
في قابض جزيته . . . ولو كان في الكبر خير لما كان في دهر الجاهلية
اظهر منه في دهر الاسلام ، ولما كان في العبد افشى منه في الحر ، ولما
كان في السند اعم منه في الروم والفرس* . (١)

وباختصاره فان النبي قد لقي من عاصر دعوته ، اشد المكروه وقد استوى في
ايذاك من جمعته القريب به ومن لم تجمه ايضا . قال :

* وليس بطن من بطون قريش الا وقد لقي النبي صلى الله عليه وسلم منه
اعظم المكروه ، وان كانوا في ذلك على طبقات : من مجتهد لا يفتي ولا يفتي
ولا يسأم ، ومن رجل ماؤد معهم بضلعه بيد معهم لضره - وان كان لا يبلغ ظلو
الآخر وتصميمه وقلة اخفاله . ولقد كانت خزاعة وثقيف على بعد انسابها
وارحامها ، احسن تقية من قريش في اظهار العداوة والارصاد بالمكروه
والثبات على البغي . . . على انهم قد اجلبوا وطعنوا وكفروا وكذبوا . . .
ولقد كان ابولهب على قرية وقرابته ، شبيها بابي جهل في الغلظة والقسوة
والجفاء وكثرة التدري وقلة السامة . . . وكان بني عبد مناف على قرىهم وقرابتهم ،
اشد الخلق على رسول الله . . . * (٢)

(١) الجاحظ ، " كتاب في النبل والتنبيل و ذم الكبر " رسائل الجاحظ ، ج ٤ : ١٢٥ -

١٨٢ . والملاحظ ان الجاحظ في انتقاده العرب الذين عاصروا النبي ، ينسب
انتقاده على اظهار الصفات وتقضي الاسباب التي اذنت بهم الى مخاصة النبي ،
منتها الى انها ترجع الى خلق الكبر .

(٢) الجاحظ ، كتاب العشمانية ، تحقيق عبد السلام هارون ، (مصر : دار الكتاب العربي ،

١٩٥٥) ص ١٠١ - ١٠٣ .

إذا كانت تعاليم الاسلام دافعا اساسيا جعل الجاحظ ينطلق منها للتعبير عن جملة مآخذه على العرب ، فان العامل الديني لم يكن العامل الاوحد الذي صدرت عنه تلك المآخذ ، ان كان للسياسة نصيب في هذا الشأن ايضا . فارتباط الجاحظ باهل الحكم العباسي جعله اشبه ما يكون بالناطق الرسمي عن معتقدات ذلك الحكم ، والمدافع الاول عنها ازا ، خصوصها السياسيين ولا سيما بني أمية .

وقد انطلق الجاحظ من الجاهلية في انتقاده لبني أمية ، قائلا ان قيام بني هاشم بالايلاف ، وتأسيسهم حلف الفضول ، ودا عن استئثارهم باشراف خصال قريش في الجاهلية ، كاللوا ، والندوة والسقاية والرفادة وزمزم والحجابه (١) دون بني عبد شمس ، لما يفتح باب المآخذ الدينية بشكل قوى على بني أمية ، ويتابع قائلا :

” . . . وصنع أمية في الجاهلية شيئا لم يصنعه احد من العرب ، زوج ابنة ابا عمرو امرأت في حياته منه ، فاولدها ابا معيط بن ابي عمرو بن أمية . والمقيتون في الاسلام هم الذين نكحوا نساء آبائهم بعد موتهم . فاما ان يتزوجها في حياة الاب ويبنى عليها وهو يراه فانه شيء لم يكن قط . . . ” (٢)

ويؤكد الجاحظ تهافت بني أمية الديني من خلال ذكره لحوادث معينة في صدر الاسلام او خلال الحكم الاموي . اما في صدر الاسلام ، فان الجاحظ ينكر اى تفسيق لبني أمية على بني هاشم فيما يتعلق بنبوته محمد لان الحسد والبغضة كانا ينعمان ببني أمية من نصرة النبي . قال :

” . . . قال الله تعالى : (وانذر عشيرتكم الاقربين) فلم يدع النبي صلى الله عليه وسلم احدا من بني عبد شمس ، وكانت عشيرته الاقربون بني هاشم وبني عبد المطلب ، وعشيرته فوق ذلك عبد مناف ، وفوق ذلك قصي . . . وقد علم الناس ان عبد مناف ولد اربعة : هاشم والمطلب وعبد شمس ونوفلا . وان هاشم والمطلب كانا يدا واحدة وان عبد شمس ونوفلا كانا يدا واحدة . وكان ما ابطأ ببني نوفل عن الاسلام ابطأ اء اخوتهم من بني عبد شمس ، وكان ما حث بني المطلب على الاسلام فضل

(١) الجاحظ ، ” كتاب فضل هاشم على عبد شمس ، ” رسائل الجاحظ ، تحقيق السندوي ،

ص ٦٧ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٧٥

محبتهم لبني هاشم. لان امر النبي صلى الله عليه وسلم كان بيتا وانما كانوا يمتنعون منه من طريق الحسد والبغضة . فمن لم يكن فيه هذه العلة ، لم يكن له دين الاسلام مانع. . . .^(١)

ويعود الجاحظ ثانية الى تقصي باعث خلق الحسد الذي ادى الى امتناع بني امية وغيرهم عن نصرة النبي ، فيرده الى عامل الكبر :

والمذكورون من الناس بالكبر، ثم من قرش : بنو مخزوم وبنو أمية . ومن العرب : بنو جعفر بن كلاب وبنو زارة بن عدس خاصة . . . فاما بنو مسو مخزوم، وبنو أمية، وبنو جعفر بن كلاب، وبنو زارة بن عدس، فأبطرهم ما وجدوا لانفسهم من الفضيلة . ولو كان في قوى عقولهم ودانتهم فضل على قوى دواعي الحمية فيهم ، لكانوا كبني هاشم في تواضعهم وفي انصافهم لمن دونهم...." (٢)

ولم يأخذ الجاحظ على بني أمية امتناعهم عن نصره الاسلام وقت البعثة فحسب
وانما اخذ عليهم محاربتهم آل البيت النبوى خلال الفترات التاريخية اللاحقة :

... والعباس هو الذي منع الناس من قتل أبي سفيان وجاءه بسكبه
 رديفا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ... وتلك يد بيضاء ونعمة
 غراء ومقام شهود ... فكان جزاء بني هاشم من بنيهم أن حاربوا عليا ،
 وسبوا الحسين وقتلوا الحسين وحملوا النساء على الأقتاب حواسر وكشفوا
 عن عورة علي بن الحسين حين أشكل عليهم بلوفه كما يصنع بذراري الشركين
 إذا دخلت دورهم عنوة ... وقتل عبيد الله بن زياد يوم الطَّف تسعة
 من صلب علي وسبعة من صلب عقيل ... وأكلت هند كبد حمزة ، فمنهم
 آكلة الأكباد ، ومنهم كهف النفاق ، ومنهم من نقر بين شئتي الحسين
 بالقضيب ، ومنهم القاتل يوم الحرة : عون بن عبد الله بن جعفر ، ويسوم
 الطَّف : أبا بكر بن عبد الله بن جعفر ... قال أبو عثمان : " ... وسميت
 أبا هاشم عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب ، ونبشت زيدا وصلبتموه ...
 وقتلتم الإمام جعفر الصادق ، وقتلتم يحيى بن زيد وسميت قاتله ثائمر
 مروان وناصر الدين ... " (٣)

(۱) الجاحظ، "کتاب فضل هاشم علی عبد شمس"، رسائل الجاحظ، تحقیق السندوبی،

ص ١١٢-١١٤ . والآية المذكورة هي من سورة الشعراء : ٢١٤ .

(٢) الجاحظ، كتاب الحيوان ٦٥ : ٧٠ - ٧٢

(۳) الجاحظ، "كتاب فضلهاشم على عبد شمس"، رسائل الجاحظ، تحقيق السندوي،

ويعلل الجاحظ سوء تصرف عمال بني أمية بأنه ينطلق من كفر قادتهم
المدعين للإمامة أو الخلافة عليهم لتحررهم من أحكام الكتاب والسنة :

"... فعندها استوى معاوية على الملك واستبد على بقية الشيعة ،
وعلى جماعة المسلمين من الانصار والمهاجرين في العام الذي سبوه عام
الجماعة - وما كان عام جماعة ، بل كان عام فرقة وقهر وجبرية وظلمة ،
والعام الذي تحولت فيه الإمامة ملكا كسرويا ، والخلافة غصبا قيصريا ،
ولم يعد ذلك اجمع الضلال والفسق . ثم مازالت معاصيه من جنس
ما حكينا ... حتى رد قضية رسول الله صلى الله عليه وسلم ردا مكشوفاً ،
وبعد حكمه جحدا ظاهرا ، وفي ولد الفراش وما يجب للماهر ، مع اجماع
الامة ان سمية لم تكن لابي سفيان فراشا ، وأنه إنما كان بها عاهرا ،
فخرج بذلك من حكم الفجار الى حكم الكفار " (١)

إذا فتصرف زياد بن ابيه وابنه عبيد الله بن زياد ازا شعائر الله وآل بيته
رسول الله ، ليسا بشيء بالنظر الى الكفرة الاولى التي وسعت زيادا ابنا شرعيا لابي
سفيان فاعطته الضوء الاخضر لتلك التصرفات :

"... فهذه اول كفرة كانت في الامة . ثم لم تكن الا فمين يدعي امامتها
والخلافة عليها ... ثم الذي كان من يزيد ابنه ومن عماله واهل نصرته ،
ثم غزو مكة ورمي الكعبة ، واستباحة المدينة ، وقتل الحسين عليه السلام ...
فاحسبوا قتله (٢) ليس بكفر ، واباحة المدينة وهتك الحرمه ليس بحجة ،
كيف تقولون في رمي الكعبة ، وهدم البيت الحرام ؟ ... وكيف تقولون
في قول عبيد الله بن زياد لاخته وخاصته : دعوني اقتله (٣) فانه بقية
هذا النسل ، فاحسم به هذا القرن ، واميت به هذا الداء ، واقطع به
هذه الطامة " (٤)

(١) الجاحظ ، " رسالة في النابتة " رسائل الجاحظ ، ج ٢ : ١٠ - ١١ . وانظر في
مثالب معاوية ، الفقرة ٦٥١٨ من " رسالة في الحكمين " ، مجلة الشرق
ولا حظ تراجع الجاحظ عن تكفير معاوية الى تفسيره وتأنيبه في الفقرة ٧٣ و ٧١ من
المجلد المذكورة .

(٢) اي الحسين .

(٣) اي علي بن الحسين .

(٤) الجاحظ ، رسالة في النابتة ، " رسائل الجاحظ " ج ٢ : ١٢ - ١٣

وهذا النص لا يدع مجالاً للشك بأن الجاحظ يوظف معلوماته الدينية في سهيل الانتقاص من قدر خصوم العباسيين . وإذا كان في عصر معاوية قدر من حرية الكلمة ، فإن ذلك القدر انتفى بمجيء عبد الملك بن مروان الذي أنهى عصر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالكلية :

"... فعبد الملك بن مروان أبوه ولا* الملوك الذين تفتخر الأموية بهم ؛ أغرق الناس في الكفر... وحسبك من جهله تبدل شرائع الدين والاسلام وهو يريد أن يلي أمراً أصحابها بذلك الدين بعينه ؛ وحسبك من جهله أنه رأى من أبلغ التدبير في منع بني هاشم الخلافة أن يلعن علي بن أبي طالب على منابرهم... حتى قام عبد الملك بن مروان ، وابنه الوليد ، وعاطلها الحجاج بن يوسف ، ومولاه يزيد بن أبي سلم ، فعاثوا على البيت بالهدم ، وعلى حرم المدينة بالغزو ، فهدموا الكعبة ، واستباحوا الحرم ، وحولوا قبلة واسط ، وآخروا صلاة الجمعة إلى مغير بن الشمس... وما يدل على أن القوم لم يكونوا إلا في طريق التمرد على الله عز وجل ، والاستخفاف بالدين ، والتهسان بالمسلمين ، والابتذال لأهل الحق ، أكل أمرائهم الطعام ، وشربهم الشراب ، على منابرهم أيام جمعهم وجمعهم... وذلك أن كان كسراً كله... (١)"

ويرى الجاحظ أن عراقة عبد الملك في الكفر لم تكن لكفره بالشرائع الدينية وشعائرها فقط ، وإنما لكفره بسلفه وأئمة الأمويين الذين أوصلوه الحكم :

"... وحسبك من جهله قيامه على منبر الخلافة قائلاً : اني والله ما انا بالخليفة المستضعف ، ولا بالخليفة المداهن ، ولا بالخليفة المأفون . وهو لا* سلفه وأئمة ، وشفعتهم قام ذلك المقام ، ويتقدمهم وتأسيسهم نال تلك الرئاسة . ولولا القادة المتقدمة والجنود المجندة والصنائع القائمة لكان أبعد خلق الله من ذلك المقام وأقربهم إلى الهلكة ان رام ذلك الشرف . وعنى بالمستضعف عثمان ، وبالمداهن معاوية ، وبالمأفون يزيد بن معاوية . وهذا الكلام نقض لسلطانه وعداوة لاهله... (٢)"

-
- (١) الجاحظ ، " كتاب فضل هاشم على عبد شمس " ، رسائل الجاحظ ، تحقيق...
السندوبي ، ص ٨٠ و ٩٢ " رسالة في النابتة " رسائل الجاحظ ، ج ٢ : ١٥ - ١٨
- (٢) الجاحظ ، " كتاب فضل هاشم على عبد شمس " ، رسائل الجاحظ ، تحقيق...
السندوبي ، ص ٩٢ .

هكذا نكون قد بينا ان الجاحظ في مأخذ على بني امية كان يضرب على وتسر
العاطفة الدينية لا ايماننا بها فحسب ، وانما تزكية لمصلحة العباسيين السياسية ايضا .
وبعد ، فان هؤلاء الامويين لم يستحقوا الخلافة بالقرابة او السابقة الى الجهاد .
اذا لم يبق الا حق قرشيتهم " لان رواية الراوى ، الاثمة من قرش واقعة على كسل
قرش " (١) فيبقى المأخذ الا هم للجاحظ على بني امية مأخذ دينيا - سياسيا ، لان بني
امية اخفقوا في تحقيق حديث النبي " الاثمة من قرش " ، لسبب اوضعه الجاحظ حين
قال " ان الرياسة في الدين لا تستحق بغير الدين والعمل الصالح " (٢) ، ولوان الواقع
التاريخي لبني امية يناقض هذا الحديث حين اثبتوا ان الرياسة في الدين تمت لهم
بالغصب القيصري والملك الكسروي ، اى لاسباب القهر والجبرية والغلبة التي ليست
من الاسلام في شي . قال الجاحظ في ملك عبد الملك بن مروان :

" ... ولولا القادة المتقدمة والاجناد المجندة والصنائع القائمة لكان ابعد
خلق الله من ذلك المقام ، واقربهم الى الهلكة ، ان رام ذلك
الشرف ... " (٣)

-
- (١) المصدر نفسه صفحة ٧٧ ونص الحديث " الاثمة من قرش " في سند احمد
ابن حنبل ، الباب الثالث ص ١٢٩ و ١٨٣ والرابع ص ٤٢١ . عن المعجم
المفهرس لالفاظ الحديث النهوي ، (مادة أم) .
- (٢) الجاحظ ، كتاب العثمانية ، ص ٢١١ .
- (٣) الجاحظ ، " كتاب فضل هاشم على عبد شمس " رسائل الجاحظ ، تحقيق
السندوبي ، ص ٩٢ .

تناول الجاحظ في مآخذ على معاصريه من عرب المجتمع العباسي، عاداتهم وخصائصهم . اما عامة عصره ، فقد اخذ عليها عدم طاعتها للخاصة وسلوكها المضطرب ازا' مسألة الامة ونشاطها الاعلامي ايضا . وفيما يتعلق بعدم طاعة العوام للخواص ، فقد رده الجاحظ الى علل واسباب كالعلل التي تعرض لجوارح الانسان . قال :

"ومقام العامة من الخاصة مقام جوارح الانسان من الانسان . . . وكما ان الجوارح لا تعرف قصد النفس ولا تروى في الامور ولم يخرجها ذلك من الطاعة للعزم ، فكذلك العامة ، لا تعرف قصد القادة ولا تدبير الخاصة ، ولا تروى معها . . . والجوارح والعوام وان كانت مسخرة ومدبرة - فقد تمتنع لعلل تدخلها ، وامور تصرفها ، واسباب تنقضها ، كاليد يعرض لها الفالج واللسان يعثر به الخرس ، فلا تقدر النفس على تسديدهما ، وتقويتهما ، ولو اشتد عزهما . . . وكذلك العامة عند نفورها وتهيجها ، وقلبة الهوى والسخف عليها ، وان حسن تدبير الخاصة ، وتعهد الساسة . غير ان معصية الجارحة ايسر ضررا ، واهون امرا ، لان العامة اذا انتكحت للخاصة وتنكحت للقادة ، وتشترنت على الرضاة ، كان البوار الذي لاحيلة له ، والفناء الذي لا بقاء معه . " (١)

(١) الجاحظ ، "مقالة العشانية" ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ٣٦ - ٣٧ . والملاحظ في انتقاد الجاحظ لهذه الشريحة الهامة من المجتمع العباسي المعاصر له ، تأثر الجاحظ بالفكر اليوناني حين شبه الطبقات الاجتماعية بقوى انسانية كما فعل افلاطون مع فارق دقيق هو ان الجاحظ شبه الطبقات الاجتماعية بجوارح الانسان في حين شبهها افلاطون بالقوى النفسية كالقوة المفكرة والقوة الغضبية والشهوية . انظر : جمهورية افلاطون ، بالانكليزية :

Plato, The Republic of Plato, translated by Francis Macdonald, (Oxford : Oxford University Press) pp. 119, 129, 139.

اما سلوك العامة المضطرب ازاء مسألة الامة فمفاده ان العوام المعاصرين للجاحظ اما انهم افراطوا في التعلق بامام دون غيره او انهم لم يعوا ضرورة اقامة الامام العادل كما سنرى . قال الجاحظ في مأخذ الافراط الذي يعكس عدم اعمال الفكر في مسائل الدين ، استثقالا للتمثيل وبغضا للتحصيل واستمرارا في التقليد :

... " ووجه آخر يستدل به على قلة عناية الناس بامر الدين وان شأنهم تعظيم الرجال والاستسلام للنشأ والذهاب مع العصبية والهوى والرضى بالسابق الى القلوب واستثقال التمثيل وبغض التحصيل ، ما نجد من انقياد اكثر البصريين وسوادهم لتقديم عثمان بن عفان ومن انقياد اكثر الكوفيين لتقديم علي بن ابي طالب ومن انقياد اكثر الشاميين لديسن بني امية وتعظيم عثمان وحب بني مروان ، حتى غلط لذلك قوم فزعسوا ان ذلك من قبل الطالع ... ومن عمل التربة ... وليس ذلك - اكرمك الله - الا من قبيل تقليد السلف وحب الرجال وما وقع في القلوب وهيجته المحبة ، لان تقليد الآباء هو الذي ارتهنهم وحب الرجال هو الذي اعماهم واصمهم ... ولو كان ذلك من قبل الطالع او التربة ، لما حسن الامر والنهي ، ولما جاز الحمد والشواب واللائمة والعقاب ، ولما كان لارسال الرسل معنى ... فصح ان دين الناس بالتقليد لا بالنظر ، وليس التقليد الى الحق باسرع منه الى الباطل . " (١)

ويبدو ان الجاحظ رد اخطاء العامة الى دائرة الاختيار الانساني والهوى الشخصي فقط دون ان يكون للعوامل المادية اي اثر حتمي على خطأ الانسان . واذا كان افراط اهل الكوفة والبصرة والشام في التعلق بامام دون غيره مذمة ، فان في تقصير المصنف الآخر من العوام في ادراك ضرورة اقامة الامام مذمة ايضا الى درجة ان الجاحظ عد من يجهل " معنى الامة وضرورة الخلافة الراشدة ، (٢) " بأنه ينتهي الى فئة العامة الغفلة ، وذلك " لاستسلامها لدواعي الهوى وتحررها من رقابة الدين وانطلاقها وراء كل ربح تهب وناشئة تنجم ، (٣) " فباتت هذه الفئة لا تفصل بين فضل وجود الامة ونقص عدمها .

(١) الجاحظ ، " الاخبار وكيف تصح " ، المجلة الآسيوية ، ص ١٠١ - ١٠٢

(٢) الجاحظ ، " مقالة العثمانية " ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ٣٦ .

(٣) المصدر نفسه .

وهذا الاتجاه النقدي غير بعيد عن حديث للرسول " من مات بغير امام مات ميتة جاهلية . " (١)

اما مأخذ الجاحظ الاخير على عوام عصره فهو قائم على ما بدر منها من نشاط اعلامي بات يخشى منه على تدبير الخاصة من اهل المجتمع العباسي . ولذلك نصّب الجاحظ نفسه لمعالجة هذا الصنف من العوام الذين " لولا ان لهم متكلمين ، وقصاصا متفقيين . . . لم يلحقوا بالخاصة ، ولا بأهل المعرفة التامة . ولكننا كما نخافهم نرجوهم ، وكما نشفق منهم نطمع فيهم . " (٢) لقد خشي الجاحظ منهم لان نشاطهم الكلامي اصبح يولّف خطرا قد يلوّن الواجهة الفكرية السياسية لمبادئ المعتزلة الثابتة . لذلك السبب ، خطّ الجاحظ رسالته " في نفي التشبيه " ووجهها الى القاضي أبي الوليد محمد بن ابي دؤاد (٣) يعبر فيها عن ثورته على كيفية سماح المعتزلة باختراق صفوفهم على يد سفلة القوم من رؤساء العوام . . . الذين اشعلوا فتنة واضرموا نارا (٤) حين اندسوا في صفوف المعتزلة واصبحوا بمناصبهم المستحدثة خطرا على مبادئ الخاصة . قال الجاحظ :

" . . . فكيف صاروا في باطلهم ايام قدرتهم اقوى منا في حقنا امام قدرتنا ؟ " (٥)

(١) انظر مسند احمد بن حنبل ٤ : ٩٦ ، عن المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي .

(٢) الجاحظ ، "رسالة في نفي التشبيه" ، رسائل الجاحظ ، ١ : ٢٨٥ .

(٣) الرسالة موجهة له كما ذكرنا ، لا لوالده احمد بن ابي دؤاد لان الاخير - صاحب

القول بخلق القرآن ايام المعتصم والواثق - كان اكثر ليونة مع رؤساء العامة .

فاستغل الجاحظ حمية الشباب التي في ابنه ، كي يستطيع دفع مصالحح

المعتزلة التي واجهها بلاء العوام والمشبّهة . انظر : الجاحظ ، "كتاب صناعة

الكلام" ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ٢٤٣ .

(٤) الجاحظ ، "مقالة العثمانية" ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ٤١

(٥) الجاحظ ، "رسالة في نفي التشبيه" ، المصدر نفسه ، ١ : ٢٨٧ .

والخطر ثابت لانه " على العلماء ان يخافوا دول العلم كما يخاف الطغوى دول السك " (١) وبهذا الداء ان للعوام رؤسا . قال الجاحظ :

" . . . والعوام - ابقاك الله - اذا كانت نشرا ، فامرها امير ومسددة هيجها اقصر . فاذا كان لها رئيس حاذق ومطاع مدبر ، وامام مقلد ، فعند ذلك ينقطع الطمع ، ويموت الحق ، ويقتل الحق (٢)

وقد رأى الجاحظ ان في منازعة العوام للخاصة ، الكلام في " القدر والاستطاعة والتكليف " بلاء لا يخفى على احد ، خصوصا انه معني بتوجيه رجال الدولة العباسية ، فلم يمكن التغاضي عن البلاء المتمثل في رومية كل انسان من المسلمين نفسه متكلم (٣) . قال :

" . . . ولونطق عالم بحرف في القدر حتى يذكر العلم والشبهة ، والتكليف والاستطاعة ، وهل خلق الله تعالى الكفر وقدره اولم يخلقه ولم يقدره ، لم يبق حمال اغثر ، ولا بهطال غث ، ولا خامل غفل ، ولا غبي كهام ، ولا جاهل سفيه ، الا وقف عليه ولا حاء وصوبه وخطاه (٤)

ولذلك صب الجاحظ غضبه على عامة عصره حتى يخال القارى ان الجاحظ يقصد عرب الجاهلية لا عرب المجتمع العباسي وذلك لاشتراكهم في العيوب الجاهلية . قال :

" وضرب آخر من الناس : هيج هامج ورعاع منتشر ، لا نظام لهم ، ولا اختبار (٥) عندهم ، اعراب اجلاف ، واشباه الاعراب ، يفرقون مسن

- (١) الجاحظ ، " كتاب خلق القرآن " ، المصدر نفسه ، ج ٣ : ٣٠٠ .
- (٢) الجاحظ ، " رسالة في نفي التشبيه " ، المصدر نفسه ، ج ١ : ٢٨٤ - ٢٨٥ .
- (٣) الجاحظ ، " رسالة الرد على النصارى " ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ٣٢٠ .
- (٤) الجاحظ ، " مقالة العشانية " ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ٤٠ - ٤١ . والجدير بالذكر ان الجاحظ لم يكن يخشى على القاضي ابن ابي دؤاد من العامة فحسب وانما خشي ايضا على الخليفة المعتصم الذي اخذت مجالسه يغشاها اولئك المضلون من العوام ، خاصة وان المعتصم في نظر الجاحظ لم يكن يتمتع بالقوة التي كانت للمؤمنين في دفاعه عن مصالح المعتزلة وحماية فكرها الديني من هجمة العامة عليها .
- (٥) وردت بلفظ " اختبار " ايضا . انظر " كتاب استحقاق الامة " ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ٢١٢ .

حيث يجتمعون ، ويجتمعون من حيث يفترون ، لا تدفع صولتهم اذا
 هاجوا ولا يؤمن هيجانهم اذا سكنوا . ان اخصبوا طغوا في البلاد وان
 اجذبوا آثروا العناد . هم موكلين ببغض القادة ، واهل الثراء والنعمة ،
 يمتنون النكبة ، ويمشون بالعثرة ، ويسرون بالجوقة ، ويمترقبون الدائرة .
 وهم كما وصفوا ، الطغام والسفلة وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه
 في دعائه : " نعوذ بالله من قوم اذا اجتمعوا لم يُطكوا ، واذا افترقوا
 لم يعرفوا . " فهو " لا " هو " لا " ! " (١)

اي ان هو " لا " الذين ذكرهم علي بن ابي طالب وتوجس منهم ، هم الاعراب
 انفسهم والعوام الضالون في عصر الجاحظ . وبالتحديد هم ذلك الصنف المتفوق
 المدعو " بالناطقة والمشبهة " (٢) الذي فزا مجالس المعتزلة بسلطانه الكلامي المستحدث ،
 بعد ان رفض القول بخلق القرآن ، ولذلك فهم كما قال الجاحظ " دائبون في التأسلم
 من المعتزلة ، عدد هم كثير ونصيبهم شديد ، والعوام معهم والحشويط معهم " (٣)
 ذكرنا مآخذ الجاحظ في عامة عصره ، اما مآخذه في خاصة عصره فيعكسها قوله
 التالي الذي يحصر مشاكل المجتمع العباسي في العلاقة غير المتحققة بين
 العامة والخاصة وبالتحديد في تدبير الخاصة وطاعة العامة لها . فاذا كانت العامة

-
- (١) انظر الجاحظ ، " مقالة الزهدية والرافضة " رسائل الجاحظ ، ٤ : ٣١٤ - ٣١٥ .
 وقد تكرر النص بصيغ ماثلة في " كتاب استحقاق الامة " ، المصدر نفسه ، ٤ :
 ٢١٢ و " رسالة في نفي التشبيه " المصدر نفسه ، ١ : ٢٨٣ .
 (٢) للجاحظ رسالة خاصة في النابتة ضمن رسائل الجاحظ ، ج ٢ : ٣ - ٢٥ ، وهي
 الفئة صاحبة المآخذ اعلاه التي قرنها الجاحظ بالعوام (المصدر المذكور ص ٢٠)
 وبالمبتدعة (ص ١٢ و ص ١٤) . وبالرافضة (ص ١٨) . وقد كتب الجاحظ هذه
 الرسالة في هذه الفئة التي كانت تضاد الفكر المعتزلي والسياسة العباسية وتساند
 الامويين والحنابلة مستخدمة في ذلك كله " الكلام " . راجع :

Charles Pellat, *The life and works of Jāhiz*, translated
 by D.L. Hawke, (University of California press, 1969),
 p. 18.

- (٣) الجاحظ ، " كتاب في خلق القرآن " رسائل الجاحظ ، ٣ : ٣٠٠ .

- كما تقدم - لا تطيع الخاصة ، فان المشكلة مضاعفة لان الخاصة ، وهي العلاج الباقي كما يوصي " الجاحظ ، بحاجة الى تصويب بعد ان اتخمت بالاسباب وافترقت الى التدبير . قال الجاحظ :

" صلاح الدنيا وتام النعمة في تدبير الخاصة وطاعة العامة . كما ان كمال النفعة وتام درك الحاجة بصواب قصد النفس . . . فالخاصة تحتاج الى العامة كحاجة العامة الى الخاصة ، وكذلك القلب والجراحة ، وانما هم جند للدفع ، وسلاح للقطع . . . وليس في الأعمال اقل من الاختيار ولا في الاختيار اقل من الصواب . فلها ب كل عمل اختياره ، وصفوه كل اختيار صوابه . ومع كثرة الاختيار يكثر الصواب ، واكثر الناس اختيارا اكثرهم صوابا ، واكثرهم اسبابا موجبة اقلهم اختيارا ، واقلهم اختيارا اقلهم صوابا . " (١)

ولعل الجاحظ يقصد بكثرة الاسباب الداء الذي غزا العرب التي لم يكن لها من الاسباب ما توفر للعباسيين الذين ابطرتهم اسباب الملكية والترف وتعرضوا لمختلف مظاهر الغزو الحضاري والثقافي الفارسي . ولقد اشار الجاحظ الى ذلك حين قال :

" . . . دولة بني العباس عجمية خراسانية ، ودولة بني مروان عربية عربية . . . " (٢)

فهذا القول قد يكون اطلقه الجاحظ بسبب ملاحظته انتشار المظاهر والبراسيم الفارسية في البلاط والمجتمع العباسي ، كانعزال الخليفة عن الرعية ووجود الجلاذ وغيرهما من المظاهر التي تؤكد سلطة الخليفة واستبداده . وكأن الجاحظ لم يملك الا التذمر من هذه المظاهر التي تمثل تحديا لمجتمع النبوة والخلافة الراشدة . قال الجاحظ :

" قد يستخر الله الملك ليقوم باسباب قديمة واسباب حديثة ، فلا يزال الملك مقصورا عليهم ، ما دامت تلك الاسباب قائمة ، ان كانوا للملك مستخرين ،

(١) الجاحظ ، " مقالة العثمانية " ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ٣٧ - ٣٨ .

(٢) الجاحظ ، " البيان والتبيين " ، ٣ : ٣٦٦ .

وكان الناس لهم مسخرين بالجبرية والنخوة ، والفظاظة والقسوة ، ولطول الاحتجاب والاستتار ، وسوء اللقا ، والتضييع . (١)

فالجاحظ يأخذ على العباسيين استتارهم عن الناس - وإن لم يجروا على تسميتهم - إلا بالاشارة على انهم قوم سخر الله لهم الملك باسباب قديمة ، هي نبوة محمد ، واسباب حديثة هي التي عددها اعلاه .

ويظهر انزعاج الجاحظ الضمني من ظاهرة الاستتار والحجاب لدى الخلفاء العباسيين من خلال تخصيصه رسالة كاملة في هذا الموضوع ، دار معظمها في خبر من عوتب على احتجاجه . وقد لَمَّ الجاحظ الى محاولات اصلاح هذه الظاهرة فنسب الملوك حين قال : " ان الملوك اذا اتت ما يحل من المعاتبة ضربت لها الامثال وعرض لها بالحديث . . . وان السعيد من وعظ بغيره " (٢) فالجاحظ مدرك للهوة الفاصلة بين مثالية عهد النبوة وبين عجمة عهد بني العباس ومع هذا فهو لم يأل جهدا في التوجيه والاصلاح فاستهل رسالته في الحجاب بما ورد في الاثر في النهي عنه :

" . . . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : " ثلاث من كن فيه من الولاة اضطلع بامانه وامره : اذا عدل في حكمه ، ولم يحتجب دون غيره ، واقام كتاب الله في القريب والبعيد . . . ويوصي عمر عماله فيقول : اياكم والحجاب ، واظهروا امركم بالبراز . . . وكتب عمر رضوان الله عليه الى معاوية وهو عامله على الشام : " اياك والاحتجاب دون الناس ، وأذن للضعيف وادنه حتى ينسبط لسانه ويجترى قلبه . . . " (٣)

هايراد رأى الجاحظ الناقد لسلوك الخاصة والعامة من معاصريه من عرب المجتمع العباسي نكون قد انهينا عرض القسم المتعلق بآخذه في عرب الجاهلية وصدر الاسلام وعرب الدولة الاموية والعباسية .

(١) الجاحظ ، " رسالة حجج النبوة " ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ٢٤٥ .

(٢) الجاحظ ، " كتاب الحجاب " ، رسائل الجاحظ ، ٢ : ٢٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ٢ : ٣٠ - ٣١ .

من يدرس اقوال الجاحظ في غير العرب يلحظ ان جعبة الجاحظ ممتلئة
الفضائل اتسعت لتشمل اما غير عربية لم يخف الجاحظ اعجابه بها او تقديره لها .
فالعرب وان كانت استأثرت بالرسالة ، فان ذلك لم يعن في نظره استثنائها بجملة
الخيرات النافعة من الله على جميع الخلق لانه من باب العدل ان يكون لهذه
الام نصيب في هذه الخيرات والناقب . قال :

"... واهي الله الا ان يقسم نعمه بين طبقات جميع عباد . قسمة
عدل يعطي كل قرن وكل امة حصتها ونصيبها ، على تمام مراشده
الدين ، وكمال مصالح الدنيا ." (١)

بيد انه تجدر الاشارة الى ان الجاحظ فتح عينيه على مناقب الامم بالقدر
الذي يصب في مصلحة الخلافة العباسية . فهو يرى ان العباسيين في حكم من اقبلت
الدنيا عليه بمحاسن غيره . وبالتالي فان محاسن الامم المعتبرة التي ظلت تنتقل بين
الامم الى ان ورثها العرب خاضعة الى نوع من التسخير اعطاها دورا وظيفيا آخر
غير الدور المحلي المعهود ، هو رفادة الخلافة العباسية وترسيخ فضلي الملوك
والنبوة (٢) المجتمعين فيها . وقد لاحظ الجاحظ ان خيرات الامم هذه تتميز
بالاختصاص الحضاري الذي يسم كل امة باسهم حضاري معين يغلب عليها
كاختصاص "اهل الصين في الصناعات ، واليونانيين في الحكم والآداب ، والعرب فيما
نحن ذاكروه في موضعه ، وآل ساسان في الطك ، والأتراك في الحروب" (٣) وهي مزايا
حضارية مقدّر لها ان تصب في بوتقة الخلافة العباسية ، التي ما كانت لتبلغ ذلك
الفضل لو لم تسبقها الامم اليه . قال الجاحظ :

-
- (١) الجاحظ ، "كتاب في الوكلاء" ، رسائل الجاحظ ، ج ٤ : ١٠٣ .
(٢) انظر : الجاحظ ، "رسالة في النابتة" ، رسائل الجاحظ ، ج ٢ : ٢١ .
(٣) "رسالة في مناقب الترك" ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٦٢ .

وقد نقلت كتب الهند وترجمت حكم اليونانية ، وحولت آداب الفرس .. من امة الى امة ومن قرن الى قرن ومن لسان الى لسان ، حتى انتهت الينا وكنا آخر من ورثها ونظر فيها . . . ولولا ما اودعت لنا الاوائل في كتبها ، وخلصت من عجيب حكمتها ، ودونت من انواع سيرها ، حتى شاهدنا بها ما غاب عنا ، وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا ، فجمعنا الى قليلنا كثيرهم ، وادركنا ما لم نكن ندركه الا بهم ، لقد خسر حظنا من الحكمة ، ولضعف سبيلنا الى المعرفة . ولولجأنا الى قدر قوتنا ، ومنتهى تجاربنا . . . لقلت المعرفة وسقطت الهمة . . . ولكل احد وتباعد العقل . (١)

(١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ١ : ٨٥ و ٨٦ - ٨٦ . ويذهب بعض الدارسين الى عد الجاحظ اول من عبر عن مفهوم انتقال حكم الامم الى العقل العربي من خلال انتقاله التدريجي السابق من امة الى امة . انظر :

Tarif Khalidy, Islamic Historiography, (Albany: State University of New York Press, 1975) p. 82.

وانظر ايضا :

Franz Rosenthal, Technique & Approach of Muslim Scholarship (Rome: Pontificium Institutum Biblicum, 1947), p. 71.

الفصل الثاني

الهند

مناقب الهند :

لقد لخص الجاحظ اسهام الهند الحضارى ، وخاصة في الحساب والطب والخط والادب بقوله :

" واما الهند فوجدناهم يقدمون في النجوم والحساب ، ولهم الخط الهندى خاصة ، ويقدمون في الطب ، ولهم اسرار الطب وعلاج فاحش الادواء خاصة . ولهم خرط التماثيل ونحت الصور بالاصباغ تتخذ فسي المحاريب^(١) واشياء ذلك . ولهم الشطرنج ، وهي اشرف لعبة واكثرها تدبيرا وفطنة . ولهم السيوف القطعية^(٢) ، وهم ألعب الناس بها واحذقهم ضربا بها . ولهم الرقى النافذة في السموم وفي الاجاع . ولهم غنا^٣ معجب . ولهم الكككة ، وهي وتر واحد يمد على قرعة فيقوم مقام اوتار العود والصنج . ولهم ضربوب الرقص والخفة ، ولهم الثقافة عند الشفاف خاصة^(٣) ، ولهم معرفة المناصفة^(٤) ، ولهم السحر والتدخين والدامازكية^(٥) . ولهم خط جامع لحيروف اللغات ، وخطوط ايضا كثيرة . ولهم شعر كثير وخطب طوال ، وطب في الفلسفة والادب . وعنهم اخذ

- (١) ورد النص نفسه في موضعين : " كتاب فضل السودان على البيضان " ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٢٢٣ - ٢٢٤ " وكتاب الاخبار وكيف تصح " ص ٩٧ . مع فروقات بسيطة في الالفاظ . والجملة المذكورة وردت في الموضع الثاني : " مع التصوير بالاصباغ كزى المحاريب " ص ٩٧ .
- (٢) السيوف القطعية نسبة الى القطعة ، وهي قلعة عظيمة ببلدة تسمى " كله " وهي اول بلاد الهند من جهة الصين وفيها تضرب السيوف القطعية . والجملة نفسها وردت في " كتاب الاخبار وكيف تصح " ولهم صنعة السيوف الهندية " ص ٩٧ .
- (٣) الثقافة حديدة او خشبة تكون مع القواس والرماح يقوم بها ما اعوج من الرماح . انظر : ابن منظور " لسان العرب " مادة ثقف .
- (٤) لم اهتم الى مدلولها في المعاجم .
- (٥) الدمازكية او الترمازكية كما يقول المحقق عبدالسلام هارون ، ضرب من اللعوق الطبي . انظر " كتاب فخر السودان على البيضان " ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٢٢٣ .

كتاب كليملة ودمنة . ولهم رأى ونجدة . وليس لاحد من اهل الصبر ما لهم (١) . ولهم من الرى الحسن والاخلاق المحمودة مثل الاخلاصة والقرن والسواك ، والاحتباء ، والفرق والخضاب . وفيهم جمال وملح واعتدال وطيب عرق . والى نسايتهم يضرب الامثال . ومن عندهم خراج علم الفكر ، بالعود الهندى الذى لا يعدله عود . ومن عندهم خراج علم الفكر ، وما اذا تكلم به على السم لم يضّر (٢) . واصل حساب النجوم من عندهم ، اخذه الناس خاصة . وآدم عليه السلام انما هبط من الجنة فصار بيلادهم (٣) .

هذه هي جملة المناقب التي وجدها الجاحظ في امة الهند ، وهي مناقب تعكس التفاعل الثقافي والتجارى السائد بين المجتمع الهندى والمجتمع العربى . اما التفاعل الثقافى فواضح من اقراره بفضل الهند في علوم الطب والحساب والتأليف القصصى ولهم الفلك . اما التفاعل التجارى فيظهر من معرفة الجاحظ بالسيف الهندية وآلات عزفهم وتسليمتهم المعروفة بالكنكة ، ناهيك عن العود الهندى ذى الرائحة الطيبة .

-
- (١) نسب الجاحظ سمة الصبر من قبل للعرب والترك واصناف السودان .
(٢) لعل الجاحظ يقصد بذلك عادة الهند في التأمل الفكرى مع ما يتطلبه من مقامات واحوال . انظر مادة " ستر " في :

- Encyclopaedia of Religion, s.v. "Sutra and Sastra Literature," by Ludo Rocher.
- The Ramakrishna Mission Institute of Culture, Cultural Heritage of India, (Calcutta, 1958), 1: 243-245.

ولعله يقصد ايمانهم بالرقى والتعاون والعزائم . راجع في ذلك : البهرونى ، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل او مردولة ، (الهند : حيدرآباد الدكن ، مجلس دائرة المعارف العثمانية ، ١٩٥٨) خاصة الفصل المتعلق بهذا الموضوع ص ١٥٤-١٥٥ . وانظر ايضا : الجاحظ " كتاب الحيوان " ، ٤ : ١٤٨ .

- (٣) اشار الى ذلك ايضا ابوحيان في تفسيره : البحر المحيط (القاهرة : دار السعادة ، ١٣٢٨) ١ : ١٦٣ . بيد ان شارل بلا رأى ان المسلمين قالوا ان آدم حين نزل الارض انما نزل ببابل . انظر : كتاب التبريع والتدوير ، فقرة ٦٤ .

وقد خُصَّ الجاحظ ما لعلم الخطوط والحروف الهندية من فضل على علوم
الفكر وبالتالي ما أسهمت الحضارة الهندية في الحضارة الانسانية . قال الجاحظ فسي
ذلك :

* ولولا خطوط الهند لضاع من الحساب الكثير والبسيط ، ولبطلت
معرفة التضاعيف ، ولعدوا الا حاطة بالباورات (١) وباورات الباورات ، ولو
ادركوا ذلك لما ادركوه الا بعد ان تغلظ المؤونة وتنتقض السنة ولصاروا
في حال معجزة وحسور والى حال مضيفة وكلال حد . . ونفع الحساب
معلوم ، والخلة في موضع فقدته معروفة . قال الله تعالى : الرحمن علم
القرآن ، خلق الانسان ، علمه البيان . ثم قال : الشمس والقمر بحسبان (٢) .
وبالبيان عرف الانسان القرآن . وقال الله تعالى : هو الذي جعل
الشمس ضياء والقمر نورا ، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب (٣) .
فاجرى الحساب مجرى البيان بالقرآن . وحسبان منازل القمر ، عرفنا
حالات المد والجزر ، وكيف تكون الزيادة في الاهلة وانصاف الشهور ،
وكيف يكون النقصان في خلال ذلك ، وكيف تلك المراتب وتلك الاقدار . .
فاى نفع اعظم واى مرفق اعون من الخط والحال فيه كما ذكرنا . ولسولا
الكتب المدونة والاخبار المخلدة والحكم المخطوطة التي تحصن الحساب
وغير الحساب ، ليطل اكثر العلم ولغلب سلطان النسيان سلطان الذكر
ولما كان للناس مفع الى موضع استدكار (٤)

(١) لم اعثر على معنى هذا اللفظ في تفسير البيروني لنظام الهند الحسابي . انظر :
البيروني ، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة . . ص ١٣٢ - ١٤٣ . ولكن
الاستشرق شارل بلا قال في تفسيره لهذه الكلمة في ادب الجاحظ انها تعكس
يد معرفة الرياضيين العرب بالنظام الحسابي لدى الهند ، وبالتحديد ، النظام
العشري . وفهم الاستشرق ان الباورات هي تلك المذكورة في كتاب البيروني
بصيغة البهوري (Bhuri) وانها تدل على الرقم ١ مضاعفا ثمانى عشرة
مرة . (10^{18}) انظر : الجاحظ ، كتاب التربيع والتدوير ، تحقيق بلا ،
الفقرة ٣٧ ص ٢٥ و ١١٣ . وقد ذكر الجاحظ ان " العكان " هو الكثير الذى
لا يكون فوقه عدد . راجع : الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٦ : ٢٣٠ .

(٢) الرحمن : ١

(٣) يونس : ٥

(٤) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ١ : ٤٦ - ٤٨ .

وما خص الله به الهند في نظر الجاحظ ان على ارضها الحيوانات التالية ،
كالغيل والبهير والطاوس والبهغا والدجاج السندی والكركدن . قال :

" والهند اصحاب البهير والغيول كما ان النوبة اصحاب الزرافات
ومن غيرهم من الامم . واهل غانة انما صار لباسهم جلود النمر لكثرة
النمر بها الا انها على حال موجودة في كثير من البلدان . . . اما الغيل
والبهير والطاوس والبهغا والدجاج السندی والكركدن ما خص الله
به الهند . " (١)

واورد الجاحظ نظرية لغوية للهند في سبب اختلاف اللغات . قال :

" وتزعم الهند ان سبب ما له كثير كلام الناس واختلفت صور الفاظهم
ومخارج كلامهم ، ومقادير اصواتهم في اللين والشدّة وفي المدّ والقطع ،
كثرة حاجاتهم . ولكثرة حاجاتهم كثرت خواطرهم وتصاريف الفاظهم ، واتسعت
على قدر اتساع معرفتهم . قالوا : فحوائج السنانير لا تعد وخمسة اوجه :
منها صياحها اذا ضربت ولذلك صورة . وصياحها اذا دعت اخواتها
والآفها ، ولذلك صورة . وصياحها اذا دعت اولادها للطعم ، ولذلك
صورة . وصياحها اذا جاءت ، ولذلك صورة . فلما قلّت وجوه المعرفة
ووجوه الحاجات ، قلّت وجوه مخارج الاصوات . واصواتها تلك فيما بينها
هو كلامها . " (٢)

والجدير بالذكر ان الجاحظ عدّ الهند من جنس السودان الذين يفضلون
البهضان في نظره ، بالخصائص المذكورة آنفا وخاصة التي وردت في رسالة فضل السودان
على البهضان . وان " السندی " في مفهوم الجاحظ غير الهندی لان الاول وان كان
من السودان ، ويسكن قرب بلاد الهند فقد عدّه الجاحظ من " الاجناس الذليلة " (٣) ،
وبالتالي هو بعيد عن الامم المعتبرة وترك معالجته الى حينه من الرسالة (٤) . ولا نجد

(١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ٧٠ : ١٣٤ و ١٧٠ .

(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ٤٠ : ٢١ - ٢٢ .

(٣) المصدر نفسه ، ٦ : ٧١ وكتاب التربيح والتدوير ، الفقرة ٤٧ .

(٤) في الفصل المتعلق بمطالب السودان ، وذلك في الباب الثاني من الرسالة .

في سائر كتابات الجاحظ في مناقب الهند الا اشارات بسيطة كالتي تعكس اعجابه
بقول في الحكمة لطف هندی (١) او بتتبع الهند بخلق الحنين الى الاوطان (٢).

(١) كاستشهاد بقول لطف هندی: " اذا تكلمت بكلمة ملكتني ، وان كنت املكها ."

انظر الجاحظ في المحاسن والاضداد ، ص ١٨ .

(٢) الجاحظ ، " رسالة في الحنين الى الاوطان " ، رسائل الجاحظ ، ٢ : ٣٨٥ .

اما الذي اخذه الجاحظ على الهند فهو انهم يجمعون الى الحكمة في دنياهم ،

جهلا عظيما في امور دينهم . قال :

" . . . وهم مع ما ذكرنا ، اصحاب بدعة ، (وهي جمع بد والبذع الصنم)
ينحتونها بأيديهم ثم يعيدونها ويجعلون لها بيوتا كمساجد المسلمين وفيها
بنات رؤسائهم موهوبة لتلك البدعة (١) على وجه التقرب بها والنذور والكفارات ؛
وتلك النساء واقعة للفساد والفجور يأمرها اهلها بذلك ويرون ان لهم فيه اجرا
عظيما ، ولهم عباد ورهبان في تلك البيوت متجردون عن اللباس ، يدعون
الزهد في الدنيا ، لا يسون الماء ويتبركون باوساخهم ، ويختبرونهم بتلك النساء
وملاعبتها . فمن اشتاق من اولئك العباد الى تلك النساء وهاج ، فقد كسر
كفرا عظيما واتى باعظم منكر والحقوه انواع العذاب والنكال وقتلوه . هذا فسي
الزهاد خاصة ، فاما غيرهم فلا ينكرون عليهم الفجور بتلك النساء . واذنا اشتاق
الهنود الى زيارة موتاهم اضرمو النيران وحملوا معهم الهدايا واللطائف
وتضمخوا بالصندل وتكفنوا ورموا بانفسهم في تلك النيران ويزعمون انهم يرجعون
الى اهلهم اذا قضا وطرا من زيارة موتاهم . وهذا عجيب في جمع الهنديين
الحكمة في دنياهم والجهل العظيم في دينهم " . (٢)

(١) البدعة هي الاصنام ويبدو ان الجاحظ قد ألف كتابا في هذا الموضوع دعاه
" كتاب الاصنام " ذكره في جملة مؤلفاته التي عدّها في مقدمة كتاب الحيوان
١ : ٥ ، ساوى فيه في النقد بين العرب والهند على انهم عباد البسدة
وجه الشبه بينهما في رأيه " ان عباد البدعة المتسكين بعبادة الاوثان
المنحوتة والاصنام المنجورة ، اشد الديانين الفا لما دانوا به وشفقا بما تعبّدوا
له واظهرهم جدا واشدّهم على من خالفهم ضغنا ، وبما دانوا ضنا . " كتاب
الحيوان ١ : ٥ . اى ان العرب والهند لا يتنازلون بسهولة عن اصنامهم
لشدة سيطرة التقليد على عقولهم . وكلمة البدعة (بكسر الباء وفتح الدالين) التي
استعملها الجاحظ هي من الكلام الفارسي المعرب . مفردا البد اى الصنم وفي
القاموس انه معرب بُت . انظر الجواليقي : المعرب من الكلام الاعجمي على حروف
المعجم ، تحقيق احمد شاكر (القاهرة : دار الكتب المصرية ، ١٣٦١ هـ) ص ٨٣ .
وقد اشار الجاحظ الى مسألة عبادة الاصنام لدى الامم في كتاب التربيع والتدوير
فقرة ١٣٤ ص ٧٦ .

(٢) الجاحظ ، كتاب " الاخبار وكيف تصح " ، ص ٩٨ . وانظر ايضا رسالة الجاحظ في
الحكمين ، مجلة المشرق ، ص ٤٧٣ .

(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ٧٠ : ١٢٣ و ١٢٥ .

والفضة المائعة ، يجمدان اذا صارا في جوف الانسان ، واذا جمدا
لم يجاوزا مكانهما - لكنا من القوائل بالغرابة ... " (١)

وقد ساوى الجاحظ في انفاق السجوس على بيت النار وفي انفاق الهنسد
على سدنة البددة من جهة ، وبين انفاق الزنادقة على تحسين كتبهم الذي وصل
حد المغالاة . (٢) اما ظاهرة الاستيحاش وادعاء الهند مخاطبة الجن لهم ، مع
تفنن سدنتهم في خداع الناس فمما اخذه الجاحظ على هذه الامة ايضا . قال :

" . . . وكانت لسدنة الهند حيل وألطف لمكان التكسب . ولو سمعت
اورأيت بعض ما قد اعد الهند من هذه المخاريق في بيوت عباداتهم ،
لعلمت ان الله تعالى قد من على جملة الناس بالمتكلمين ، الذين قد
نشأوا فيهم " . (٣)

-
- (١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٤٤ : ٣١٩ .
(٢) المصدر نفسه ، ١ : ٥٥ - ٥٦ .
(٣) المصدر نفسه ، ٦ : ٢٠١ والمخاريق يراد بها تلك الالاعيب التي يلجأ اليها
المشعوذون واحدها مخراق . انظر الحيوان ، ٤٤ : ٣٧٨ . هذا مع العلم ان
الجاحظ يرى هلاك المتكلمين لولا المعتزلة . انظر المصدر نفسه ، ٤٤ : ٢٨٩ .

الفصل الثالث

=====

الفـرس

=====

مناقب الفرس :

عَدَّ الجاحظ الفرس من الامم المعتبرة اى من الامم التي عليها المعتمد فسي العقل والبيان والرأى والادب والاختلاف في الصناعات * (١) وقد اوجز مناقبها بقوله :

"... ثم ملنا الى فارس ، فوجدنا هناك العقول التي لا تبلغها عقول
والاحلام التي لا تشبهها احلام ، والسياسة العجيبة والملك المؤيد
بتدبير الامور والعلم بالعواقب" (٢)

ولم يخف الجاحظ اعجابه بالاقتوال الحكيمة الفارسية ، التي استشهد بها فسي كتاباته ، قال :

"... وقال حكيم الفرس حين بلغه موت الاسكندر وهو قاتل دارا بن
دارا : ما ظننت ان قاتل دارا يموت . وهذا القول هو امدح منه لقاتله .
ولم اسمع للعجم كلمة قط امدح منها ، واما العرب فقد اصبحت لهم من هذا
الضرب كلاما كثيرا ... وقال بهرام ، وقد سمع في الليل صوت طائر فتحنأ
يسهم وهو لا يراه ، الا انه تتبع الصوت فصرعه فلما صار بين يديه قال :
والطير ايضا لو سكت كان خيرا له ... وقال ديوست المغني لكسرى حين
امر بقتله ، لقتله تلميذه بلهيد : قتلت انا بلهيد وتقتلني فمن يطربك ؟
قال : خلوا سبيله ، فان الذي بقي من عمره هو الذي انطق بهذه الحجة ...
وقال اردشير : احذروا صولة الكريم اذا جاع واللثم اذا شبع ..." (٣)

(١) الجاحظ ، " كتاب الاخبار وكيف تصح " المجلة الآسيوية ، ص ٩١ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٠٠ .

(٣) انظر : الجاحظ ، " رسالة في نفي التشبيه " ، رسالة الجاحظ ، ج ١ : ٣٠٤ و " رسالة
كتبان السر وحفظ اللسان " ، المصدر نفسه ، ج ١ : ١٦٢ و " رسالة في الجد والهزل " ،
المصدر نفسه ، ص ٢٥٨ ، والبيان والتبيين ، ج ٣ : ١٦٩ . وبهرام هو اسم لعدة
ملوك من الفرس اشهرهم بهرام جور بن بزد جرد ، ملك ثلاثا وعشرين سنة ونشأ
عند ملوك الحيوة كما قال المسعودي في التنبيه والاشراف (بيروت : مكتبة ==

وقد حفل كتاب المحاسن والاضداد بطائفة من اقوال الحكمة الفارسية هذه ،
قال الجاحظ :

"... قال الكسرى : وقع كسرى بن هرمز الى بعض المحبسـمـين
من صير على النازلة كان كمن لم تنزل به . . ومن أكل بلا مقدار تلفت
نفسه . . وقال بهرام جور : " من احب ان يعرف فضل الجود على سائر
الاشياء فليتنظر الى ما جاد الله به على الخلق من الواهب الجليلية
والرغائب النفيسة والنسيم والريح كما وعدهم الله بالجنان ، فانه لولا رضاء
الجود لم يصطفه لنفسه . " وقال بزرجمهر : " من انتظر بمعروفه شـسـرك
عاجل المكافأة . " ووجد في كتاب من كتب بزرجمهر صحيفة مكتوب فيها :
" ان حاجة الله الى عباد ان يعرفوه ، فمن عرفه فلم يعصه طرفعين . . " (١)

ومن مناقب الفرس ما ذكره الجاحظ من اخلاق ملوك الفرس في الصيد ، قال :

"... وزعموا ، وكذلك هو في كتبهم - ان ملوك فارس كانت لهجة بالصيد ؛
الا ان بهرام جور هو المشهور بذلك . . . كان الملك من الاكاسرة اذا
اصطاد عيرا وسه باسمه ، ويومه الذي اصطاده فيه ، واطلقه ، فان تهيأ
ان يصطاد ذلك العير بعينه ملك من بعده ، وسه مع وسم الملك
الذي قبله يمثل تلك السنة وخلاؤه يذهب . . . فعرف آخرهم صنيع
اولهم ، وعرفوا مقدار مقادير اعمارها . . . " (٢)

وقد اشار الجاحظ بحسن ادارة الفرس في توزيعهم الاعمال على ذوى الاختصاص

قال :

"... ولم يجعلوا للصانع ان ينتقل عن صناعته الى الكتابة ، ولم يجعلوا
للكتاب ان ينتقل من كتابته الى القيادة ، ولم يجعلوا لابنائهم الا شـمـل

(=) خياط ، (١٩٦٥) ، ص ١٠١ وانه "كان فصيحاً بالعربية وله بها شعر صالح" . واما
كسرى المذكور فهو كسرى ابرويز بن هرمز احد ملوك الساسانيين في عهد بعثة
النبي محمد . اما اردشير بن بابك فكانت الفرس تعول على تاريخ ملكه في تاريخ
سنواتها وتحصيل ايام ملوكها . انظر المصدر نفسه ، ص ١٣٧ . و اردشير بن
بابك المذكور هو اول ملوك الساسانية ، فهو ابن بابك بن ساسان . ملك اربع عشرة
سنة ثم سلم الملك الى ولده سابور . وكان اردشير افلاطوني المذهب . انظر المصدر
نفسه ، ص ١٠٠ .

(١) الجاحظ ، المحاسن والاضداد ، ص ٦٣٣ و ٦٥٤ و ٩٥٢ .

(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ١ : ٤٠ و "كتاب في البغال" رسائل الجاحظ ، ٢ : ٣١٢ .

ما كان لآبائهم ، ليعودوا الناس عادة يستوحشون معها السبي
الخروج منها (١)

ولاحظ الجاحظ ان من مناقب ملوك الفرس ايضا ، فضيلة الحنين الى الاوطان ،
مع ما تعكسه من " طيب العنصر ونفاضة الجوهر " (٢) قال :

" ووجدنا من العرب من كان اشرف على نفسه وافخر في حسيبه ومن
المعجم : من كان اطيب عنصرا وانفس جوهرًا - اشد حنينًا الى وطنه ،
ونزاعًا الى تربته . . . وحكى الموهب انه قرأ في سيرة اسفنديار بن يستاسف
ابن لهراسف ، بالفارسية ، انه لما غزا بلاد الخزر ليستنقذ اخته من الاسر ،
اعتل بها ، فقبل له : ما تشتهي ؟ قال : شمة من تربة بلخ ، وشربة من ماء
واديها . واعتل سابور ذو الاكثاف (٣) بالروم ، وكان مأسورا ، فقالت له
بنت ملك الروم وقد عشقته : ما تشتهي ما كان فيه فذاؤك ؟ قال : شربة
من ماء دجلة ، وشمة من تربة اصطخر . فغبرت عنه ايامًا ثم اتته يوما بماء
الفرات ، وقبضة من تراب شاطئه ، وقالت : هذا من ماء دجلة وهذه من
تربة ارضك ، فشرب واشتم من تلك التربة ، فنقه من مرضه . . . ولما افتتح
وهزبن شيراز بن بهرام جور اليميني ، وقتل ملك الحبشة المتغلب
على اليميني ، اقام بها عاملا لانوشروان ، فبنى نجران اليميني - وهي من
احصن مدن الثغور - فلما ادركته الوفاة اوصى ابنه شيراز ان يحمل الى
اصطخرناوس ابيه ، ففعل به ذلك . فهو لا الملوك الجبابرة الذين
لم يفتقدوا في اغترابهم نعمة ، ولا غادروا في اسفارهم شهوة ، حتى السبي
اوطانهم ، ولم يؤثروا على تربتهم وساقط رؤوسهم شيئا من الاقاليم
المستفادة بالتغازي والمدن المغتصبة من ملوك الامم . (٤)

(١) الجاحظ ، العثمانية : ١٨٦ . وقد اتى هذا الكلام في معرض كلام الجاحظ
عن سلمان الفارسي .

(٢) الجاحظ ، " رسالة الحنين الى الاوطان " ، رسائل الجاحظ ، ج ٢ : ٤٠٧ .

(٣) وسابور ذو الاكثاف ، ملك فارس ، حمل نصارى المشرق على التمسح فامتنعوا من ذلك
وقتل منهم نحو من مئتي الف . راجع المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ص ١٤٩ .

(٤) الجاحظ ، " رسالة الحنين الى الاوطان " ، رسائل الجاحظ ، ج ٢ : ٤٠٧ - ٤٠٩ .

ومن مناقب الفرس وبالتحديد اهل خراسان ، مساهمتهم في الدعوة العباسية وترسيخها كما يستفاد من قوله : دولة بني العباس عجمية خراسانية (١) . وما ان هناك فرقا بين المدلول الجغرافي لمصطلح اهل خراسان ، والمدلول السكاني له ، فلا بأس من استخراج اقوال الجاحظ فيمن يقصده بالفضل المذكور ، وبالتحديد في الخراسانيين الفرس والخراسانيين الابناء (٢) دون الخراسانيين الترك والخراسانيين العرب .

اما الخراسانيون الفارسيون فقد نسب الجاحظ لهم نصيبا من الفضل في مساهمتهم في نصرته الدعوة العباسية ، وخاصة طبقة اشرافهم او ما يسمى بالآزاد مديسة . قال :

“ . . . والخراساني يقول : نحن النقباء وابناء النقباء . . . وانا الدعابة قبل ان تظهر نقابة . . . وقبل كشف القناع وزوال التقية وزوال ملك اعدائنا

(١) الجاحظ ، البيان ، ٣ : ٣٦٦ .

(٢) ان مصطلح اهل خراسان يشمل ثلاثة اجناس كما هو واضح في “ رسالة مناقب الترك ” للجاحظ . فالخراسانية هم سكان اقليم خراسان المحليين اي هم الايرانيين المحليون الذين دخلوا في الاسلام اثر الفتوحات الاسلامية لديارهم كسما يشملون فئة الابناء او البنويعين الذين هم خراسانيون من جهة الولادة ، راجع “ رسالة مناقب الترك ” ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٣١ . والخراسانية هم الاترك الذين استقروا واستوطنوا في اقليم خراسان من بلاد فارس ، اي هم الفئة المتحضرة من الترك القادمة من بلاد ما وراء النهر وقد عرفوا بالخراسانية لوجودهم في خراسان . قال الجاحظ : “ ان الاختلاف بين الخراسانيين والتركي كالاختلاف بين البدوي والحضري والسهلي والجبلي ” المصدر نفسه ، ص ١٠ . والخراسانية هم ايضا القبائل العربية المستوطنة في خراسان اشرس الهجرة من البصرة والكوفة والشام لاغراض الفتوح العسكرية . قال الجاحظ : والخراسانية هم ابنا العرب والاعراب الذين نزلوا خراسان . المصدر نفسه ، ص ٦٣ . والخلاصة ان الجاحظ شمل في رسالته المذكورة بالفضل اهل خراسان جميعا لرغبته في جمع شمل جند الخلافة العباسية . وما دام الكلام يدور حول مناقب الفرس ، فالمقصود بالفضل هم الخراسانيون الفرس والخراسانيون الابناء .

عن مستقره، وثبات تلك اوليائنا في نصابه وما الزغندية والآزدمردية ونحن اهل هذه الدولة واصحاب هذه الدعوة ومنبت هذه الشجرة والانصار انصاران : الأوس والخزرج نصروا النبي صلى الله عليه وسلم في اول الزمان ، واهل خراسان نصروا ورثته في آخر الزمان وليس في الارض صناعة غريبة من ادب وحكمة وحساب وهندسة وايقاع وصناعة وفقه ورواية نظرت فيها الخراسانية الا فرعت فيها الرواساء وبرزت فيها العلما* (١)

واما البنويعن او الابنا* فهم كما يقول الجاحظ خراسانيون من جهة الولادة ، ولهم فضلهم ايضا في الدعوة العباسية . قال :

" ان البنوى قال : انا اصلي خراسان ، وهي مخرج الدولة ومطلبع الدعوة ، ومنها نجم هذا القرن وصبا هذا الناب ، وتغجر هذا الينبوع وفرعي بغداد وهي مستقر الخلافة وفيها بقية رجال الدعوة ، وابنا* الشيعة ، وهي خراسان العراق ، وببيت الخلافة وانا اعرق في هذا الامر من ابي واكثر ترددا فيه من جدى (٢) . ولنا بعد في انفسنا

(١) الجاحظ ، " مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ١٤ ، ١٥ و ٢٠ . ولا يستبعد الدارس فاروق عمران يكون غير العرب قد اشترك في الدعوة العباسية ، الا انه لا يمكن مقارنتهم بالعرب من حيث الدور والفعالية . وهذا القول الذي يرى ان اكثرية الدعاة كانوا عربا ، (فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ، بيروت : دار الارشاد ، ١٩٧٠ ص ١٣٣ - ١٣٤ و ١٥٩ و ١٦٠ و ٣٠١) ، يطرح استفهاما حول مقولة الخراسانيين اعلاه وخاصة الآزدمردية التي هي طبقة اشراف الفرس اى الطبقة الارستقراطية الايرانية المتعاهدة مع ولاة بني امية على اخذ الضرائب من العرب المستوطنين ، اى انها كانت ضد الدعوة العباسية المهددة لمصالحهم وامتيازاتهم فكيف يساهم الفرس النبلاء في ثورة لا مصلحة لهم فيها ؟

(٢) في ذلك اشارة الى ما قلناه من ان اصلهم خراساني اى فارسي من جهة الولادة ، فمصطلح الابنا* يعني اولئك الذين اجتذبتهم الحروب من بلاد فارس الى جزيرة العرب منذ ان استنجد سيف بن ذى يزن بكسرى (٥٣١ - ٥٧٩ م) ، لينصره على الحبشة التي غزت اليمن ، بارسال قائده وهرز . وقد ملكوا اليمن وتزوجوا في العرب فقليل لا ولا هم الابنا* ، لان امهاتهم من غير جنس آبائهم . فالابنا* ، اى اولاد المهاجرين الفرس ، يفخرون اعلاه انهم افضل من آبائهم الذين نصروا العرب في الجاهلية . انظر : الجاحظ ، " رسالة في مناقب الترك " ، ج ١ : ٥٣ ومادة ابنا* في :

ملا ينكر من الصبر تحت السيوف القصار والرماح الطوال . . . ونحن
اهل الثبات عند الجولة والمعرفة عند الحيرة . . . وزينة العساكر وحلوس
الجيوش . . . ونحن اصحاب الفتك والاقدام . . . نقاتل بالليل كما
نقاتل بالنهار . ونحن اصحاب الخط والكتابة والفقه والرواية . ولنا
بغداد بأسرها تسكن ما سكنا ، وتتحرك ما تحركنا والدنيا كلها معلقة
بها وصائرة الى معناها . . . ونحن بعد تربية الخلفاء وجيران الوزراء ،
ولدنا في افنية ملوكنا ونحن اجنحة خلفائنا . . . (١)

(١) الجاحظ ، "رسالة في مناقب الترك" ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٢٥ - ٢٨ .

مثالب الفرس :

ما اخذه الجاحظ على الفرس ، اعتناقهم لدين زرادشت (١) وقد تناول فسي ذلك الخاصة والعامة . والمقصود بالخاصة " كسرى ابرويز وآباؤه واحباؤه وقرباينه وكتابه واطباؤه وحكماؤه واساوتة " (٢) واما العامة فقد قال فيها الجاحظ وقد دعاها بالمجوس :

" . . . وكانوا يفشون الامهات ويأكلون الميتة (٣) ويتوضؤون بالابوال والماء موجود عندهم . ويعظمون النار وهم اظهروها وان شاءوا اطفؤوها . ويقولون ان الله كان وحده لا شيء معه فلما طالت وحدته استوحش فلما استوحش ففكر فلما فكر تولد من فكره " اهرمن " وهو ابلس . فلما مثل بين يديه اراد قتله . فلما اراد قتله امتنع فصالحه الى اجل معلوم ووادعه الى مدة مسماة . . ثم ان اهرمن نوى الغدر ، وذلك شيمته . فانشأ يخلق اصناف الشر يستمد بها عليه ، فلما عرف ذلك منه انشأ يخلق اصناف الخير ليضع باراً كل جند جندا . . ثم قالوا في قصة العوالسم عندهم وفي اسمائها وجواهرها وهيئاتها وفي خلق مهنة ومهينة وهما آدم وحواء . وفي سويين المنتظر عندهم ما لا يستطيع وصفه احقق نقوص ولا عالم تام ولو جهد كل جهده واستفرغ كل قوته . . . " (٤)

(١) زرادشت رجل ظهر في عهد كيمشتاسب بن كيلهراسب ، من ملوك الفرس . وقد اتاه بدين المجوسيه فقبلها الملك وحمل اهل ملكته عليها وقتل عليها . وكان الفرس قبل ذلك على رأي الحنفا الصابئين . انظر : السعودي ، التنبيه والاشراف ، ص ٩ . وزرادشت هو صاحب البستاق وشرحه الزنديستا . ظهر قبل الاسكندر بنحو ثلاثمئة سنة على ما في التنبيه والاشراف ، ص ٩٨ . وقد ظهر من بعده " مزدق " فتأول الابستا وجعل لظاهرها باطنا واستخلص من ذلك الديانة المزدقية . انظر المصدر نفسه ، ص ١٠١ . وقد دعا زرادشت دعوته - كما يؤرخ السعودي - خلال الطبقة الثالثة من ملوك الفرس . اما مزدق فخلال الطبقة الخامسة من ملوك الفرس .

(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٥ : ٣٢٥ - ٣٢٦ .

(٣) اشار الجاحظ الى ان الفرس انما فعلوا ذلك استجابة لزرادشت الذي دعا الى نكاح الامهات . انظر : كتاب الحيوان ، ٥ : ٣٢٤ . وشار ايضاً الى أكلهم المتردية والمنخنة . المصدر نفسه ، ٤ : ٩٥ .

(٤) الجاحظ ، " كتاب الاخبار " ، ص ١٠٠ - ١٠١ .

وقد تناول الجاحظ في كتاباته المظاهر المختلفة لدين زرادشت بالنقد والسخرية ، كقوله في تعظيم زرادشت لشأن النار وعلّة تخويفه أصحابه بالبرد والثلج دونها :

" وزرادشت هو الذي عظم النار وأمر بأحيائها ، ونهى عن أطفائها ، ونهى الحيض عن مسها والدنو منها . وزعم أن العقاب في الآخرة إنما هو بالبرد والمزهرير والدمق . وزعم أصحاب الكلام أن زرادشت - وهو صاحب المجوس - جاء من بلخ وأدعى أن الوحي نزل عليه على جبال سيلان . وأنه حين دعا سكان تلك الناحية الباردة ، الذين لا يعرفون إلا الأذى بالبرد ، ولا يضربون المثل إلا به . . . فلما رأى موقع البرد منهم هذا الموقع ، جعل الوعيد بتضاعفه ، وظن أن ذلك أجزل لهم عما يكره . وزرادشت في توعده تلك الأمة بالثلج دون النار ، مقرّباً لم يبعث إلا إلى أهل تلك الجبال . وكأنه إذا قيل له : أنت رسول إلى من ؟ قال لا أهل البلاد الباردة ، الذين لا بد لهم من وعيد ، ولا وعيد لهم إلا بالثلج . وهذا جهل منه ، ومن استجاب له أجهل منه . . . فلو كان المبالغة في التنفير والزجر أراد ، وإلى قصد ، لذكر ما هو في الحقيقة عند الأمم أشد . والوعيد بما هو أشد ، وبما يحتمل الخوف سكان البلاد الباردة والحارة أشبه ، إذا كان المبالغة يريد . " (١)

أما مقولة اتباعه من المجوس في بدء الخلق فقال فيها الجاحظ :

" . . . وزعم المجوس أن الناس من ولد مهنة ومهينة . وأنهما تولّدا فيما بين أرحام الأرضين ، ونطفتين ابتدرتا من عيني ابن هرمز حين قتله هرمز . وحماقات أصحاب الاثنين كثيرة في هذا الباب . . . " (٢)

وقد فصل الجاحظ مقولة المجوس أن القارة من خلق الله وأن السنور من خلق الشيطان ، كما في النص الذي ورد آنفاً ، وتناولها بالنقد والتعجب ، قال :

(١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٥ : ٦٦ - ٦٨ .

(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ١٠ : ١٩٠ .

" ويزعم زرادشت وهو مذهب المجوس ان الفأرة من خلق الله وان السنور من خلق الشيطان ، وهو ابلس ، وهو اهرمن . قيل له : كيف تقول ذلك والفأرة مفسدة وتجذب فتيل الصباح فتحرق بذلك البيت والقبائل الكثيرة ، والمدن العظام والارياض الواسعة ، بما فيها من الناس والحيوان والاموال ، وتقرض دفاتر العلم ، وكتب الله ، ودقائق الحساب ، والصكوك . . . والناس ربما اجتلبوا السنائر ليدفعوا بها بوائق الفأرة (١) فكيف صار خلق الضار المفسد من الله ، وخلق النافع من الضر من خلق الشيطان ؟ . . . وقال : لان السنور لو بال فسي البحر لقتل عشرة آلاف سمكة . فهل سمعت بحجة قط ، او بحيلة ، او باضحوكة او بكلام ظهر على تلقيح هرة ، يبلغهم من هذا الاعتلال ؟ فالحمد لله الذي كان هذا مقدار عقولهم واختيارهم (٢)

كما ان الجاحظ لم يملك الا تنفيذ مقولة ثانية للمجوس الذين رأوا ان العظايا فاتها نصيبها من السموم التي كان يوزعها " اهرمن " على عالم الحيوان ، فقال :

" . . . وزعم زرادشت ان العظايا ليست من ذوات السموم . . . وان اهرمن لما قعد ليقيم السموم ، كان الحظ الا وفر لكل شيء سيق الى طلبه ، كالا فاعي والشعابين والجرارات . . . فاما العظاية ، فانها احتبست عن الطلب حتى نغذ السم . . . فلما جاءت العظاية وقد فني السم ، دخلها من الحسرة وما علاها من الكرب ، حتى جعلت وجهها الى الخرابات والمزابل . فاذا رايت العظاية تمشي مشيا سريعا ثم تقف ، فان تلك الوقفة انما هي لما يعرض لها من التذكر والحسرة على ما فاتها من نصيبها من السم . . . ولا اعلم العظاية في هذا القياس الا اكثر شروا من الوزغ ، لانها لو لا افراط طباعها في الشرارة ، لم يدخلها من قوة الهيم مثل السحذى دخلها (٣)

(١) ذكر الجاحظ هذه القصة ايضا في كتاب الحيوان ٥ : ٣١٩ وقال : " فالاسم كلها على التفادى من الفأرة واتخاذ السنائر لها . "

(٢) الجاحظ ، الحيوان ٤ : ٢٩٨ - ٣٠٠ .

(٣) العظاية هي دويبة ، انظر الصدر نفسه ، ٤ : ٢٩٦ - ٢٩٧ .

وروى الجاحظ الفرس بالتناقض والحماقة لجهلهم ان العظامة اكثر شـمرا
من الافعى . قال :

"... ولم ار قولا اشد تناقضا ولا اموق من قولهم هذا لان العظامة
لم يكن ليعتربها من الاسف على قوت السم ، على ما ذكروا اولاً ، الا وفي
طبعها من الشرارة الخريزية اكثر مما في طبع الافعى ."^(١)

وقد سلك الجاحظ مسلكاً تعليمياً في عرض مآخذ الفرس حين استنتج بأن
عقيدتهم لا تتبع احكام العقل ، وانما تتبع المنشأ والتقليد . قال :

"... فان تعجبت من استسقاطي لعقل كسرى ابرويز وآباءه ، واحبائه
وقرايينه ، وكتابه واطبائه ، وحكمائه واساورته - فاني اقول في ذلك قسولا
تعرف به اني ليس الى العصبية ذهبت ... فدا المنشأ والتقليد
دا لا يحسن علاج حالينوس ولا غيره من الاطباء . وتعظيم الكبراء ،
وتقليد الاسلاف ، والف دين الآباء ، والانس بما لا يعرفون غيرهم ،
يحتاج الى علاج شديد ، والكلام في هذا يطول . فان آثرت ان تتعجب ،
حتى دعاك التعجب الى ذكر ابرويز ، فاذا ذكر سادات قريش فانهم
فوق كسرى وآل كسرى ."^(٢)

واذا كان دا التقليد والمنشأ سببا في اعتناق كسرى وخاصته ، للزرادشتية ، فان
سبيل زرادشت نفسه مع قومه كان يعتمد في مفهوم الجاحظ ، على عوامل اخرى كشيوخ
الفساد وانعدام الحرية فيما بين عاصمتهم وخاصتهم . قال الجاحظ :

"... وزرادشت بهذا العقل دعا الناس الى نكاح الامهات ، والسي
التوضو بالبول ... ولولا انه صادف دهره في غاية الفساد وامة فسي
غاية البعد من الحرية ... لما تم له هذا الامر . وقد زعم ناس ان ذلك
انما كان وانما تم لانه بدأ بالملك ، فدعاه على قدر ما عرف من طباعه
وشهوته وخلقه . فكان الملك هو الذي حمل على ذلك رعيته^(٣) . ولا يجوز
ان يكون الملك حمل العامة على ذلك الا بعد ان يكون زرادشت - الفى على ذلك
الفساد اجناد الملك . ولم يكن الملك لمقوى على العامة باجناده ، وبعشرة

(١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ٦ : ٤٦٠ .

(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ٥ : ٣٢٦ - ٣٢٧ .

(٣) راجع السعوى ، التنبيه والاشراف ، ص ٩٠ .

اضعاف اجناده ، الا ان يكون في العامة عالم من الناس ، يكونون
اعوانا للاجناد على سائر الرعية . . . وقد ينبغي ان يكون ذلك
الزمان كان افسد زمان ، واولئك الاهل كانوا شر اهل . ولذلك لسم
ترقط ذا دين تحول الى المجوسية عن دينه . ولم يكن ذلك المذهب
الا في شقهم وصقعمهم من فارس والجبال وخراسان ، وهذه كلها
فارسية (١) .

ولم يكف الجاحظ بسرد المآخذ الدينية على الفرس وانما خصهم ايضا بنقد
سلوكهم الاجتماعي وبالتحديد ما شاع في اقليم خراسان واقليم الاهواز من بلاد فارس .
اما خراسان ، فقد لاحظ الجاحظ شيوع البخل في انسها وحيوانها ، قال :

... نبدأ باهل خراسان لاكثر الناس في اهل خراسان . ونخص بذلك
اهل مرو ، بقدر ما خصوا به من بخل . قال ثامة بن الاشرس (٢) : لم
ار الديك في بلدة قط الا وهو لا يظ يأخذ الحبة بمنقاره ثم يلفظها
قدام الدجاجة ، الا ديك مرو ، فاني رأيت ديك مرو تسلب الدجاج ما في
مناكيرها من الحب . فعلمت ان بخلهم شي في طباع البلاد ، وفي
جواهرها ، فمن ثم عم جميع حيوانهم . فحدثت بهذا الحديث
احمد بن رشيد ، فقال : كنت عند شيخ من اهل مرو . وصبي له صغير يلعب
بين يديه . فقلت له : اما عابثا واما متعنا . اطعمني من خبزكم ، قال :
لا تريد ، هو مر . فقلت : فاسقني من ما ثكم . قال : لا تريد ، هو مالح .
قلت : هات لي من كذا وكذا . قال : لا تريد ، هو كذا . وكذا . الى ان
عددت اصنافا كثيرة . كل ذلك يمنعني ويغضه الي . فضحك ابوه وقال :
ما ذنبنا ؟ هذا من علمه ما تسمع ؟ يعني ان البخل طبع فيهم وفسي
اعراقهم وطينتهم (٤)

(١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٥ : ٣٢٤ - ٣٢٦ .

(٢) ثامة بن الاشرس من أئمة المعتزلة في عهد المأمون . اسمه ابو بشر ثامة بن
الاشرس النخعي . كان خصيصا بالمأمون . انظر ابن خلكان ، وفيات الاعيان ،
تحقيق احسان عباس ، (بيروت : دار الثقافة ، ١٩٧٢) ج ٦ : ١٧٧ .
(٣) الجاحظ ، البخلا ، ص ١٣ .

واما الاهواز فقد قال الجاحظ انها لم تعرف بأثرة حميدة لكونها مجمع الشرور والاهثة ولان فسادها لم ينج منه من سكنها من بني هاشم ايضا ، وذلك لفساد عقول الاهواز ولو لم طبع بلادهم . قال :

* واما قصبة الاهواز ، فانها قلبت كل من نزلها من بني هاشم السي كثير من طبائعهم وشمائلهم . ولا بد للهاشمي ، قبح الوجه كسان او حسنا ، او دميما كان او بارعا رائعا ، من ان يكون لوجهه وشمائله طبائع يبين بها من جميع قريش وجميع العرب . فلقد كادت البلدة ان تنقل ذلك فتبدله ، ولقد تخيفته وادخلت الضيم عليه وبيئت اثرها فيه ، فما ظنك بصنيعها في سائر الاجناس ؟ ولفساد عقولهم ولو لم طبع بلادهم ، لا تراهم مع تلك الاموال الكثيرة ، والضياح الفاشية ، يحبون من البنين والبنات ما يحبه اوساط اهل الامصار على الثروة واليسار ، وان طال ذلك وليس في الارض صناعة مذكورة ، ولا ادب شريف ، ولا مذهب محمود ، لهم في شي* منه نصيب وان خص . ولم اربها وجنة حمرا* لصبي ولا صبية وهي قتالة للغربا* . وعلى ان حياها خاصة ليست للغريب يا سرع منها الى القريب . وهاؤها وحياها ، وفي وقت انكشاف الربا* ونزوع الحق عن جميع البلدان وكذلك جمعت سوق الاهواز (١) الاقاعي ولو كان في العالم شي* هو شر من الاقاعي والجرارة ، لما

(١) سوق الاهواز احد الاماكن الوبئة التي كان يضرب بها المثل في فساد الهسوا* واعتلال الصحة . وهو قصبة بلاد الاهواز او خوزستان ، وما يسمى الان عرستان . انظر :

Le Strange, Lands of the Eastern Caliphate. (Cambridge, 1905), p.232.

والاهواز جمع هوزاو خوزي ، نسبة لقبيلة محاربة ، نمت تحت الحكم الاموي والعباسي ، وقد حصلت ثورة الزنج فيها خلال القرن الثالث الهجري ، التاسع م . انظر :

Encyclopaedia of Islam, new ed., s.v. "Al-Ahwāz," by L. Lockhart.

وقد ذكر ياقوت الرومي الحموي في معجمه البلدان ، ما يدل على انه كان ينقل من الجاحظ . قال : " واهل الاهواز معروفون بالبخل والحق وسقوط النفس . ومن اقام بها سنة نقص عقله . وقد سكنها من الاشراف فانقلبوا الى طباع اهلها وهي كثيرة الحق ووجوه اهلها مصفرة مغبرة . وقال مستشهدا باحمد بن محمد الهمداني : اهل الاهواز الأم الناس وابخلهم وليس في الارض صناعة مذكورة ولا ادب شريف ولا مذهب محمود لهم في شي* منه نصيب وهي قتالة للغربا* . كسرت (=)

قصرت قصة الاهواز عن توليده وتلقيحه ! ومن اقام بالا هواز حولا فتفقد عقله ذو فراسة ، وجد النقصان فيه بيّنا .^(١)

وما انتقده الجاحظ ايضا في اهل الاهواز صعوبة لغتهم لكثرة مخارج حروفهم :

" واللغات انما تشتد وتعسر على المتكلم بها ، على قدر جهله بامكانها التي وضعت فيها . . . وعلى قدر مخارجها وخفتها وسلسها وثقلها وتعقدها في انفسها ، كغرق ما بين الزنجي والخوزي . فان الرجل ينتخس في بيع الزنج وابتاعهم شهرا واحدا فيتكلم بعامة كلامهم ، ويبايع الخوز ، ويجاورهم زمانا فلا يتعلق منهم بطائل . . . والمخارج لا تحصى ولا يوقف عليها . وكذلك القول في حروف كثيرة من حروف لغات العجم ، وليس ذلك في شيء ، اكثر منه في لغة الخوز . وفي سواحل البحر من اسيا ف فارس ناس كثير كلامهم يشبه الصغير . . .^(٢)

بذلك نكون عرضنا آراء الجاحظ في مناقب الفرس ومثالبها .

(٣) بسوقها الافاعي ، وفي جبلها الطاعن في منازلها ، المظل عليها ، والجرارات فسي بيوتها ومنازلها ومقابرها . ومن بليتها ان من ورائها سباحا ومناقع ماء غليظة . فاذا التقى عليهم ما انجر من تلك السباح وما قذفه ذلك الجبل فسد الهواء ، وفسد بفساده كل شيء يشتمل عليه ذلك الهواء . وسكرها جيد وشرها كثير لا بأس به ، وكل طيب يحمل الى الاهواز فانه يستحيل وتذهب رائحته ويبطل حتى لا ينتفع به . انظر : يا قوت الرومي الحموي ، معجم البلدان ، (بيروت : دار صادر ودار بيروت ، ١٩٥٥) ج ١ : ٢٨٥-٢٨٦ .

(١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ج ١ : ١٤١-١٤٢ ، وص ١٣٥ .

(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٢٨٩ : ٥ و البيان والتبيين ، ١ : ٣٤ . وينافي هذا القول ، ما نسبته الجاحظ الى الشعبية في سهولة لغة اهل فارس واهل مرو واهل قصة الاهواز . انظر : البيان والتبيين ، ٣ : ١٣ .

الفصل الرابع

=====

الروم

=====

مناقب الروم :

عَدَّ الجاحظ الروم من الامم السعيرة* التي فيها الاخلاق والآداب والحكم والعلم^(١) وقد لخص مناقبها بقوله :

"... ثم ملنا الى الروم فوجدناهم اطباء وحكماً ومنجّمين ولهم اصول اللجون وصناعة القرسطون وكيان الكتب ، وهم الغايات في التصوير ، يصور مصورهم الانسان حتى لا يفادر شيئاً ، ثم لا يرضى بذلك حتى يصوره شاباً وان شاء كهلاً وان شاء شيخاً ، ثم لا يرضى بذلك حتى يصوره باكياً او ضاحكاً ، ثم لا يرضى بذلك حتى يجعله جميلاً ناعماً عتيقاً ، ثم لا يرضى بذلك حتى يفصل بين ضحك الشامت وضحك الخجل وبين المبتسم والمستعبر وبين ضحك المسرور وضحك الهازي* وضحك المتهدّد ، فيركب صورة في صورة وصورة في صورة وصورة في صورة . ثم لهم في البناء ما ليس لغيرهم ومن الخراط والنجر والصناعة ما ليس لسواهم . ثم هم مع ذلك اصحاب كتاب وملة . ولهم بعد في الجمال والحساب والقضاء في النجوم والخط والنجدة والرأى وانواع السكيدة ما لا ينكر ولا يجحد ."^(٢)

ومن مناقب الروم ايضا فضيلة الحنين الى الاوطان . وقد دلّ الجاحظ على ذلك بقوله في ملك الروم ، الاسكندر :

" وكان الاسكندر الرومي جال في البلدان واخرب اقليم بابل وكَنَزَ الكوز... . فمرض بحضرة بابل ، فلما اشفى اوصى الى حكماة ووزرائه ان تحمل رُمته في تابوت من ذهب ، الى بلده ، حباً للوطن... . فهو* الاولك الجبابرة الذين لم يفتقدوا في اغترابهم نعمة ، حنوا الى اوطانهم

(١) الجاحظ ، البيان ، ١ : ١٣٧ و ٣٨٤ .

(٢) الجاحظ ، " كتاب الاخبار وكيف تصح " ، ص ٩٨ - ٩٩ .

ولم يؤثروا على تربيتهم وساقط رؤوسهم شيئا من الاقاليم المستفادة
بالتغازي والمدن المفتوحة من ملوك الامم (١).

ويبدو للدارس ندرة في ذكر اسما ملوك الروم ، الذين يتمتعون بالمناقب
والحسان ، كما فعل الجاحظ في كلامه في ملوك الفرس ، ولعل ذلك مرده الى عدم
العام الجاحظ باللغة الرومية وبتاريخ الروم فضلا عن حالة الحرب بين العرب والروم .
وباستثناء ملاحظة الجاحظ السابقة في الاسكندر لانهثر سوى على النص التالي الذي
يعكس اعجاب الجاحظ بما لدى " ملك الروم " من دراية في الحرب . قال :

" قال ابو الحسن عن سلمة بن خطاب الازدي : قال : لما تشاغل
عبد الملك بن مروان بمحاربة مصعب بن الزهير ، اجتمع وجوه الروم الي
ملكهم فقالوا له : قد امكنتك الفرصة من العرب ، بتشغل بعضهم مع بعض ،
لوقوع بأسهم بينهم . فالرأى لك ان تغزوهم الى بلادهم فانك ان فعلت
ذلك بهم نلت حاجتك ، فلا تدعهم حتى تنقضي الحرب التي بينهم
فيجتمعوا عليك . فنهاهم عن ذلك وخطأ رأيهم ، فأبوا عليه الا ان يغزوا
العرب في بلادهم . فلما رأى ذلك منهم امر بكلبين فحرش بينهما ،
فاقتل قتالا شديدا ، ثم دعا بشعلب فخلأه ، فلما رأى الكلبان الشعلب ،
تركا ما كانا فيه ، واقبلا عليه حتى قتلاه ، فقال ملك الروم : كيف تسرون ؟
هكذا العرب ، تقتل بينها ، فاذا رأونا تركوا ذلك واجتمعوا علينا ،
فعرفوا صدقه ، ورجعوا عن رأيهم (٢) .

كما اشار الجاحظ بالزعماء الرومية (٣) التي استوحيت فكرة الانفاق من تدهيس
اليرابيع . وكذلك كان شأن قومها ، يحاكون اليرابيع بغرض الاحتيال في حروبهم

-
- (١) الملاحظ ان الروم في ادب الجاحظ هم غير اليونان ، راجع البيان ١ : ٨٨
ورسالة " الرد على النصاري " ، رسائل الجاحظ ٣ : ٣١٤ - ٣١٥ ، والنص
المذكور عن الاسكندر من " رسالة في الحنين الى الاوطان " ، المصدر نفسه ، ٢ : ٤٠٩ .
- (٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٢ : ١٧٢ - ١٧٣ .
- (٣) ويرى المحقق عبدالسلام هارون ان اغلب القول انها عربية . انظر كتاب الحيوان
٥ : ٢٧٨ ، وكذلك المستشرق شارل بلا ، الذي رأى انها زنبوية التي ملكست
تدمر ، بين ٢٦٧ و ٢٧٢ للميلاد . راجع كتاب التربيعة والتدوير ، تحقيق بلا ،
الفقرة ٦٣ ص ٣٧ .

على أعدائهم ، " بالانفاق والمطامير والمخارق" (١) . ومن جهة ثانية ، صوّر الجاحظ اعتماد الروم على الخنازير للاستدلال على الوقت . قال :

" . . . ورأينا الروم ونصارى القرى يعرفون ذلك بحركات الخنازير ويكورها وغدورها واصواتها ، ولذلك قالوا في وصف الرجل : له وثبة الاسد ، وروغان الثعلب ، وانسلاّب الذئب ، وجمع الذرة ، ويكسور الخنزير " (٢)

كما لاحظ الجاحظ ان سبي رجال الروم يصلحون لتربية الابل مع العلم ان في دخول الابل بلاد الروم ، هلاكها . قال :

" واصحاب الابل يرغبون في اتخاذ النوبة والبربر والروم للابل ، يرون انهم يصلحون على معاشها ، وتصلح على قيامهم عليها . ومن العجيب ان رجال الروم تصلح في البدو مع الابل ، ودخول الابل بلاد الروم هو هلاكها . " (٣)

وقد اعجب الجاحظ بالاعتناء بالزنى عند ملوك العجم - الذين يشملون الروم - لما في الاعتناء من تقوية لمعنى السلطان ، في نفوس العامة الذي لولاه " لاكل الناس بعضهم بعضا ، كما انه لولا المسيم لوثب السماع على " السوام" (٤) . قال :

" . . . ولذلك وضعت ملوك العجم على رؤوسها التيجان وجلست على الاسرة ، وظهرت بين الغرض . وهل يملأ عيون الاعداء ويرعب قلوب المخالفين ويحشو صدور العوام الا تعظيم شأن السلطان والزيادة في الاقدار ، والا الآلات . وهل دواؤهم الا في التهويل عليهم ؟ وهل تصلحهم الا اخافتك اياهم ؟ " (٥)

-
- (١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٥ : ٢٧٩ .
(٢) المصدر نفسه ، ٢ : ٢٩٤ . وقارن ايضا بالمصدر نفسه ، ٢ : ٣٥٣-٣٥٤ وص ٦٨ من الرسالة .
(٣) المصدر نفسه ، ٣ : ٤٣٤ .
(٤) الجاحظ ، " رسالة في المعلسين " ، رسائل الجاحظ ، ج ٣ : ٤٥ .
(٥) الجاحظ ، البيان ، ٣ : ١١٥ .

تتدرج مثالب الروم الدينية في مفهوم الجاحظ نموذجاً تطبيقياً آخر، لمفهومه في تفاوت حال الامم المعتمدة في الدنيا وحالها في الدين . قال :

" ان الناس يخصّون الدين من فاحش الخطأ وقبيح العقاب بمسا لا يخصّون به سواء من جميع العلوم والآراء والآداب والصناعات . ان الفلاح والصانع والنجار والمهندس والمصور والكاتب والحاسب من كل امة وطمة ، لا تجد بينهم من التفاوت في الفهم والعقل والصناعة ولا من فاحش الخطأ وافراط النقص كالذى تجده في اديانهم وفي عقولهم عند اختيار الايمان ؛ والدليل على ما وصفت لك ان الامم التي عليها المعتمد في العقل والبيان والرأى والادب والاختلاف في الصناعات اربع : العرب والهند والروم والفرس ؛ ومتى نقلتهم من الدنيا الى علم الدين ، حسبت عقولهم مختلة وفطرهم مسترقة " (١)

اما ما وجده الجاحظ في الروم فقد افرد له رسالة خاصة (٢) لخصها بعرض مفهومهم لعيسى عليه السلام الذي يضاد مفهوم الاسلام له . قال :

" ثم هم مع ذلك اجمع ، يرون ان الآلهة ثلاثة : بطن اثنان ، وظاهر واحد ، كما لا بد للمصباح من الدهن والفتيلة والوعاء ، فكذلك جوهر الآلهة . فزعموا ان مخلوقاً استحال خالقاً ، وان عبداً تحوّل رباً ، وان حديثاً انقلب قدوماً ، الا انه قتل وصلب بعد هذا وفقد وجعل على راسه اكليل الشوك ثم احيا نفسه بعد موته وانما امكن عبيده من اخذه واسره وسلطهم على قتله وصلبه ليؤاسي ابناؤه بنفسه وليحبب اليهم التشبه به ، ولمستصغروا جميع ما صنع بهم ولئلا يعجبوا باعمالهم فيستكثروها لربهم . فكان عذرهم اعظم من جرمهم ، فقلوا انا رأينا باعيننا وسمعنا بأذاننا لما صدقنا ولا قبلنا ان قوماً متكلمين واطباءً ومنجمين ودهاة وحسابا وكتبة وحذاق كل صنعة يقولون في انسان رأوه يأكل ويشرب ويبول وينجو ويجوع ويعطش ويكتسي ويعمرى ويزيد وينقص ، ثم يقتل بزعمهم ويصلب ، انه رب خالق واله رازق ، وانه قديم غير محدث يسميت الالهة . ويحيى الموتى " (٣)

(١) الجاحظ ، " كتاب الاخبار وكيف تصح " ، ص ٩١ .

(٢) هي " رسالة الرد على النصارى " ، رسائل الجاحظ ، ج ٣ .

(٣) الجاحظ ، " كتاب الاخبار وكيف تصح " ، ص ٩٩ - ١٠٠ .

وما اخذ الجاحظ في الروم ان شأنها في القتال اثر التدين لم يعد كما كان قبله .

"... انا قد علمنا ان الروم قبل التدين بالنصرانية ، كانت تنتصف من ملوك فارس ، وكانت الحروب بينهم سجالا (١) فلما صارت لا تدين بالقتل والقتال ، والقود والقصاص ، اعتراهم مثل ما يعتري الجبناء حتى صاروا يتكفون القتال تكلفا . ولما خامرت طبائعهم تلك الديانة ، وسرت فيهم لحوسهم ودمائهم فصارت تلك الديانة تعترض عليهم ، وخرجوا من حدود الغالبية الى ان صاروا مغلوبين ."(٢)

كما اخذ الجاحظ على الروم انها اول من ابتدع الخصا مع ما في الخصي من اخلاق مذمومة :

" وما يدل على قلة رحمتهم وفساد قلوبهم انهم اصحاب الخصا من بين جميع الامم ، والخصا اشد المثلة ، واعظم ما ركب به انسان . ثم يفعلون ذلك باطفال لا ذنب لهم ، ولا دفع عندهم . ولا نعرف قوما يعرفون بخصا الناس حيث ما كانوا ، الا ببلاد الروم والحبشة ، وهم في غيرها قليل ، واقل قليل (٣) . ومن اهل الملل من يخصي ابنه ويقفه على بيت العباد ، ويجعله سادنا ، كصنيع الروم . . . وكل خصا في الدنيا فانما اصله من قبل الروم . . . ويعرض للخصي الشر عند الطعام والبخل عليه والشح العام في كل شي ، وذلك من اخلاق الصبيان ثم النساء . . . ويعرض للخصي سرعة الغضب والرضى . . . وحب النسيمة وضيق الصدر بما اودع من السر وذلك من اخلاق الصبيان والنساء . . ."(٤)

-
- (١) انظر : اشارة ثانية لهذا المعنى في "رسالة في حجب النبوه" ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ٢٦٨ .
(٢) الجاحظ ، "كتاب الاوطان والبلدان" ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ١٢٦ . وقد تراجع الجاحظ عن هذا الرأي في امة الروم حين قارنها بقبيلة التفرغز التركية . انظر : كتاب الترميم والتدوير ، تحقيق شارل بلا ، ص ٧٧ حيث يقول "صحيح ان ليس في دين الروم القتال ، ولكنها لا تسترق ولا تسلب" .
(٣) اى لدى الصقالبة والسودان (الحبشان والنوبة والسند) . راجع الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ١ : ١١٦-١١٩ .
(٤) الجاحظ ، "كتاب الرد على النصارى" ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ٣٢٢-٣٢٣ ، وكتاب الحيوان ، ١ : ١٢٤ و١٣٥ .

وقد رأى الجاحظ ان عادات الروم في زخرفة بيوت العبادة والانفاق عليها
" مذهلة للقلوب ومشغلة دين الخشوع" (١) . وقد اخذ الجاحظ عليهم ايضا نشاطهم
في نشر الزندقة ودم العرب (٢) في المجتمع العباسي ، وانهم كانوا السبب في افساد
الفكر اليوناني . (٣)

-
- (١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ١ : ٥٦
(٢) انظر المصدر نفسه ، ٤ : ٤٤٧ - ٤٤٨ و" كتاب في الرد على النصاري" ،
رسائل الجاحظ ، ٣ : ٣٢٠ - ٣٢١ .
(٣) انظر " كتاب في الرد على النصاري " ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ٣١٥ ومقالة طريف
خالدي في :

Tarīf Khālīdī, "A Mosquito's wing: Al-Jāhiz on the Progress of
Knowledge," in Arabic and Islamic Garland. (London: Islamic
Cultural Center, 1977) p. 142.

الفصل الخامس

=====

الترك

=====

مناقب الترك

اشرنا في هذه الرسالة خلال دراسة رأى الجاحظ في الفرس الى ان لفظ الخراسانية يدل على الترك والعرب والفرس ، الموجودين في ذلك الاقليم . وان في قول الجاحظ المذكور " دولة بني العباس عجمية خراسانية " (١) اعترافا بفضل هذه الفئات الثلاث في قيام الدولة العباسية . واما فضل الترك في هذا الشأن فقد دفع الجاحظ الى خط رسالة كاملة سماها " رسالة في مناقب الترك " اكد فيها على ان الترك اصدقا العرب ومواليهم السخرون لنصرة الخلافة ، في محاولة منه لتجاوز واقع التنافر الذي دب بين جند الخلافة حول فضلهم في قيامها . في سبيل ذلك ، استعمل الجاحظ معلوماته الدينية لترسيخ ولاء الترك للعرب الذين جمعوا بين النسب المعنوي الممنوح لهم بالولا ، تحقيقا لقول الرسول " الولا لحة كلحة النسب " (٢) وبين النسب الفعلي الواقع بالمصاهرة :

" . . . والسنة قد نقلت الموالي الى العرب في كثير من المعاني ، لانهم عرب في المدعى ، والعاقلة ، وفي الوراثة . وهذا تأويل قوله : مولى القوم منهم . . . فقد شاركوا العرب في انسابهم والموالي في اسبابهم ، وفضلوهم بهذا الفضل الخاص الذي لا يبلغه فضل . . . " (٣)

-
- (١) الجاحظ ، البيان والتهيين ٣ : ٣٦٦ .
(٢) اخرج الحديث الحاكم والبيهقي عن ابن عمر وتتمته " لا يباع ولا يوهب " انظر : السيوطي ، صحيح الجامع الصغير وزيادته ، تحقيق محمد ناصر الدين الالباني ، (بيروت : المكتب الاسلامي ، ١٩٧٩) المجلد ٦ ص ١١٢ .
(٣) ويروى من انفسهم : اخرجه البخاري عن انس . المصدر السابق ، ص ٣٧٦ . انظر : الجاحظ ، رسالة في مناقب الترك ، رسائل الجاحظ ، ج ٣ : ١٧١-١٧٢ . والذين شاركوا العرب وفضلوهم هم الترك .

ويؤيد ذلك ان كثيرا من اسماء الخلفاء العباسيين هنّ من الجوارى الاتراك (١) ،
اي ان ولاّ الترك لم يكن ولاّ هاشميا لقبيلة مغيرة من قبائل العرب وانما كان ولاّ
”للباب قریش ولصاح عبد مناف ، وهم في سربني هاشم ، وهاشم موضع العذار من
خذّ الفرس والعقد من لبة الكاعب“ (٢) . ويستطيع الدارس لاّراّ الجاحظ في الترك
فهم جميع اقواله فيهم في ضوء هذا الفضل السياسي المذكور ، وهو فضل يعكس توجه
الدولة العباسية المتفتح نحو الام الذي يتجاوز دائرة الولاّ الجنسي العربي السى
دائرة الولاّ الديني والعسكري (٣) . ولذلك نجد ان الجاحظ بعدما فرغ من تأكيد
الولاّ الديني للترك ، بذل جهده في تقصي مناقب الحربية التي تحلّى بها
الترك ، واظهارها للوصول الى انهم ليسوا اقل شأنًا من بقية المقاتلة .
رأى الجاحظ ان الترك قوم انتظموا جميع معاني الفروسية والحرب وانهم
استأثروا بجماع خصال التفوق العسكري (٤) بفضل تمتعهم بقوة الابدان وقوة الانفس .
قال الجاحظ في ذلك :

” . . . والترك قوم يشدّ عليهم الحصر والجثوم ، وطول اللبث والمكث ،
وقلة التصرف والتحرك ، واصل بنيتهم انما وضع على الحركة ، وليس للسكون

-
- (١) انظر : زكريا كسابجي ، الترك في مؤلفات الجاحظ ، (بيروت : دار الثقافة ،
١٩٧٢) ص ١٧١ - ١٨٤ وانظر ايضا : مليحة رحمة الله ، الحالة الاجتماعية
في العراق في القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة (بغداد : مطبعة الزهراء ،
١٩٧٠) ص ١٤ .
- (٢) الجاحظ ، ”رسالة في مناقب الترك“ ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ١٧١ .
- (٣) حول مفهوم الجاحظ لسياسة العباسيين الامية الشاملة ، راجع : فاروق عمر ،
طبيعته الدعوة العباسية ، (بيروت : دار الارشاد للطباعة ،) ص ٢٧٩ .
- (٤) ويرى المستشرق فرانز روزنتال ان الترك في نظر الجاحظ يشبهون العرب فسي
القوة الحربية والقيافة . راجع :

Franz Rosenthal, The Technique and Approach of Muslim
Scholarship, (Rome: Pontificum Institutum Biblicum, 1947), p.72.

فيها نصيب ، وفي قوى انفسهم فضل على قوى ابدانهم ، وهم اصحاب
توقد وحرارة ، واشتغال وفطنة ، كثيرة خواطرهم ، سريع لحظهم ، وكانوا
يرون الكفاية معجزة وطول المقام بلادة ، والراحة عقلية ، والقناعة من قصر
الهمة ، وان ترك الغزو يورث الذلة . " (١)

ويذكر الجاحظ تفاصيل اخرى عن الشخصية التركية المحاربة تؤكد ما اشرنا اليه من
انتظامها جميع معاني الغروسية ، كصدق الشدة والانطلاقة المندفعة والصبر على
العدو السريع ومواصلة السفر والرماية على ظهور الخيل في الحرب والحداقة في
معالجة الغرس (٢) الى حد انه " لو حصلت عمر التركي وحسبت ايامه لوجدت جلوسه على
ظهر خيله اكثر من جلوسه على ظهر الارض . " (٣) فاستحق التركي في رأى الجاحظ
ان يكون " امة على حدة " ، (٤) فيه جماع خصال التفوق العسكري ، لانه اشد ما يحب الحركة
والانطلاق ، مع قوة في التحمل ، وقدرة ذاتية على تجديد النشاط ، اثر ما يتوقع ان يوهنه
لدى سائر المقاتلة . وقد عبر الجاحظ عن هذه الخاصة في الترك ، بقوله الذي يعكس انه
عابثها بنفسه :

" . . . الذى يوجد عند الاتراك عند بلوغ المنزل بعد مسير الليل كله
وبعض النهار ، فان الناس في ذلك الوقت ليس لهم الا ان يتمدوا ويقيدوا
دوابهم . والتركي في ذلك الوقت اذا عابثا او بعض الصيد ابتداء
بالركض بمثل نشاطه قبل ان يسير ذلك السير . . . وترى التركي في تلك
الحال ، وقد سار ضعف ما ساروا : يرى بقرب المنزل عيرا او ظبيا ، او عرض
له ثعلب او ارنب ، كيف يركض ركض مبتدى مستأنف حتى كان الذى سار
ذلك السير ، وتعب ذلك التعب غيره . . . وانا اخبرك اني قد رأيت منهم
شيئا عجيبا واما غريبا : رأيت في بعض غزوات المؤمنين ساطي خيل على
جنيتي الطريق بقرب المنزل ، مائة فارس من الاتراك في الجانب
الايمن ومائة من سائر الناس في الجانب الايسر ، واذا هم

-
- (١) الجاحظ ، " رسالة في مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، ١ : ٦٥ .
(٢) الجاحظ ، " رسالة في مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ٢٠٢ - ٢٠٥ .
(٣) المصدر نفسه ، ٣ : ٢٠٦ .
(٤) لان التركي هو الراعي والسائس والرائض والنخاس وهو البيطار وهو الفارس ، راجع :
المصدر نفسه ، ٣ : ٢٠٧ .

قد اصطفوا ينتظرون مجي' المؤمن ، وقد انتصف النهار واشتد الحر .
فورد عليهم وجمع الاتراك جلوس على ظهور خيولهم الا ثلاثة او اربعة ،
وجميع تلك الاخلاق من الجند قد رموا بنفوسهم الى الارض الا ثلاثة
او اربعة . فقلت لصاحب لي : انظر اى شي' اتفق لنا . اشهدان المعتصم
كان اعرف بهم حين جمعهم واصطنعهم . (١) .

كما عبر عن خصائصهم النفسية حين ذكر ان الوحدة الفكرية وسرعة البداهة
تربطان بين قلوبهم جميعا على هدف تنظيمي واحد :

" . . . والاتراك اذا صاقوا جيشا ان كان في القوم موضع عورة ، فكلهم قد
ابصرها وعرفها ؛ وان لم تكن هناك عورة ولم يكن فيهم مطمع ، وكان الرأى
الانصراف ، فكلهم قد رأى ذلك الرأى وعرف الصواب فيه . وخواطرهم

(١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ٣ : ١٦١ رسالة في مناقب الترك ، رسائل
الجاحظ ، ج ٣ : ٢٠٧-٢٠٨ ، وج ١ : ٦١-٦٢ . ويشير الجاحظ بذلك
الى استخدام المعتصم الترك باعداد كبيرة الى سامرا سنة ٢٢١ هـ / ٨٣٦ م ،
وذلك لضيق بغداد على عسكره . انظر : احمد بن شاکر الكتبي ، فوات الوفیات ،
تحقيق احسان عباس (بيروت : دار الثقافة ، ١٩٧٤) ج ٤ : ٤٩ . ويرى
کاتب مادة سامرا في دائرة المعارف الاسلامية ان المعتصم بنى سامرا (بهمن
تکريت وبغداد) خوفا من ثورات جنوده الترك المستأجرين للخدمة في الجيش
العباسي . انظر :

Encyclopaedia of Islam, old edition s.v. "Samarra" by H. Violett.
وكذلك قال المستشرق وليام موير ان المجتمع البغدادي لم يتحمل وجسود
الاتراك ولذلك بنى المعتصم سامرا التي تبعد ستين ميلا الى الشمال من
بغداد ، والتي استمرت عاصمة الخلافة من ٨٣٦ - ٨٩٤ م وذلك لسبعة خلفاء
من بعده ، كانوا يقعون يوما بعد يوم في قبضة من استقدموهم لنصرتهم . راجع :

William Muir, The Caliphate: Its Rise, Decline and Fall.
(Edinburgh, 1915), p. 512-513.

واحدة، ودواعيهم مستوية باقبالهم معا . وليس هم اصحاب تأويلات
ولا اصحاب تفاخر وتناشد ، وانما شأنهم احكام امرهم ؛ فالاختلاف يقبل
بينهم .^(١)

وغير خفي ان الجاحظ من خلال تزكية الترك يهدف الى تشجيع مستشارى الدولة
العباسية على اختيار هذا الصنف المتجاوب في قوته وبساطته لخدمة الخلافة العباسية .
قال :

" والأتراك قوم لا يعرفون الطق ولا الخلافة ، ولا النفاق ولا السعاية ،
ولا التصنع ولا النعمة ، ولا الرياء ، ولا البذخ على الاولياء ، ولا الهفسي
على الخلطاء ، ولا يعرفون الهدع ، ولم تفسد هم الا هوا^(٢)

ومناقب الترك المذكورة ترجع الى كونهم " اصحاب عمد وسكان فياف وارباب
مواش وهم اعراب العجم كما ان هذيل اكراد العرب " .^(٣) ومع ان الترك والخوارج
بدويو الاصل ، فان الكفاءة البدنية الحربية للترك فاقت كفاءة الخوارج القتالية ، مضرب
المثل في القوة آنذاك . اى ان بدواة الترك تفوقت على بدواة الخوارج لان الاغراق
في البدواة مدعاة للتفوق والنصر والغلبة^(٤) . وقد عبر الجاحظ عن ذلك بلسان احد
امراء الدولة العباسية من حضر مجلس رسول الخليفة المأمون ، بعد ان طرح الرسول
سؤالاً على القادة العسكريين : ايجبون ان يلقوا مئة تركي او مئة خارجي في حال
مواجهة قتالية ، فانفرد الامير بقوله :

-
- (١) الجاحظ ، رسالة في مناقب الترك ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٥٥ .
 - (٢) المصدر نفسه ، ص ٦٢ - ٦٣ .
 - (٣) رسالة في مناقب الترك ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٧٠ - ٧١ +
 - (٤) من الممكن ان يكون ابن خلدون قد تأثر بهذه المقولة وهي واضحة في كتابه
العبروديان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ، (القاهرة : بولاق ،
١٢٨٤) ج ١ حين ذكر ان الامم البدوية مهيأة لغلبة غيرها لانها مشبعة بالشجاعة
والقوة التي توفرها البدواة . قال ابن خلدون : " وكذلك كل حي من العرب يلي نعمياً
وعيشاً خصباً دون الحي الآخر ، فان الحي المبتدئ يكون اغلب له واقدراً عليه اذا
تكافأ في القوة والعدد ، سنة الله في خلقه " فالبدواة في نظره سبب في النصر . راجع
فصل في ان اهل البدو اقرب الى الشجاعة من اهل الحضرة ص ١٠٥ وان الامم الوحشية
اقدر على التغلب ، ص ١١٥ - ١١٦ .

"... بل القى مائة خارجي احب اليّ ، لاني وجدت الخصال التي
يفضل بها الخارجي جميع المعاتلة غير تامة في الخارجي ، ووجدتها
تامة في التركي ، ففضل التركي على الخارجي بقدر فضل الخارجي على
سائر المعاتلة ... ثم بان التركي من الخارجي بامور ليس فيها للخارجي
دعوى ولا متعلّق ... (١)"

وقد عبر الجاحظ عن التصاق مفهوم قادة الترك للقوة بما هو ماثل امامهم
في عالم الحيوان والبادية :

"... كان عظماء الترك يقولون للقائد العظيم القيادة : لابد ان تكون
فيه عشر خصال من اخلاق الحيوان : سخاء الديك ، وتحنن الدجاجة ،
وقلب الاسد ، وحيلة الخنزير ، وروغان الثعلب ، وختل الذئب ، وصبر
الكلب على الجراحة ، وحذر الغراب ، وحراسة الكركي ، وهذا يسمى
الحمام ... (٢)"

وقد تقصّى الجاحظ علّة تفوق التركي واندفاعه في القتال ، فوجد ان للتركي
شجاعة ونجدة ذاتية مستقلة عن العوامل والدوافع التي تثير نجدة المقاتل العربي
وتحمّله ، حتى اذا عرضت له تلك العوامل كانت نجدة مضاعفة وقاتله اشد :

" قال : ورأينا التركي في بلاده لم يقاتل على دين ولا على تأويل ،
ولا على ملك ولا على خراج ، ولا على عصبية ولا على غيرة دون الحرمة والمحرم ،
ولا على حمية ولا على عداوة ، ولا على وطن ومنع دار ولا مال ، وانما يقاتل على
السلب والخيار في يده ... فما ظنك بمن هذه صفته ان لواضطهره
احراج او غيرة او غضب او تدين ، او عرض له بعض ما يصحب المقاتل
المحامي من العلل والاسباب ؟ ... (٣)"

وقد بلغ اعجاب الجاحظ بهذه الامة ان اضاف لها من المناقب التي كان قد
نسبها من قبل الى العرب واليونان والصين . وهو امر لم نعهده في مواقف الجاحظ التي

(١) الجاحظ ، "رسالة في مناقب الترك" ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٤١ .

(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٢ : ٣٥٣ - ٣٥٤ .

(٣) الجاحظ ، "رسالة في مناقب الترك" ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٥٢ .

تميل الى جعل كل امة مخصوصة بلون حضارى معين . والجديد هنا ان الجاحظ لم يحكم للترك بذلك على سبيل الاطـــــــلاق ، وانما قال ان ذلك مرتبط ويمكن لو كان في بلادهم انبياء وحكما . قال :

" . . . ولو كان في شقهم انبياء وفي ارضهم حكما ، وكانت هذه الخواطر قد مرت على قلوبهم وقرعت اسماعهم ، لأنسوك ادب البصريين وحكمة اليونانيين وصنعة اهل الصين . " (١)

ولعلنا لا نبعد عن الصواب اذا قلنا ان الترك من بين جميع الامم العجيبة تأتي في نظر الجاحظ في المرتبة الاجتماعية بعد العرب اومع العرب نظرا لامتعتها بهذه الخصائص . ولولا النص المذكور اعلاه الذى لحظ فيه الجاحظ امكان التترك النفسي في مشاركة الامم المعتبرة مناقبها ، لكنا قلنا ان الجاحظ لم يلحظ في الترك سوى خصيصة الفروسية ومعاني الحرب . ولكن الجاحظ ما يلبث ان يعود الى موقفه فسي اختصاص الامم ، فيقرر ان الترك وان كانت مسخرة لانتظام معاني الحرب فان هذا التفوق في منزلة تفوق سائر الامم المعتبرة في الخصلة الاغلب على كل منها . قال :

" . . . ولم يكن همهم غير الغزو والغارة والصيد وركوب الخيل ، ومقارعة الابطال ، وطلب الغنائم وتدويخ البلدان ، وكانت همهم الى ذلك مصروفة وكانت لهذه المعاني والاسباب مسخرة ومقصورة عليها ، وموصولة بها ، احكموا ذلك الامر بأسره واتوا على آخره وصار ذلك هو صناعتهم وتجارتهم ولذتهم وفخرهم وحديثهم وسرهم . فلما كانوا كذلك ، صاروا في الحرب كاليونانيين في الحكمة ، واهل الصين في الصناعات ، والاعراب فيما عدونا ونزلنا ، وكآل ساسان في السلوك والرياسة . " (٢)

وكعادة الجاحظ في نسبة الفضائل الى الله ، رأى الجاحظ ان الترك ما كانت لتبلغ هذه المنزلة من الفضل في الحروب لو لم يسخرها الله لذلك المعنى بالاسباب

(١) الجاحظ ، " رسالة في مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٦٠ .

(٢) الجاحظ ، " رسالة في مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٧١ .

ويقصرها عليه بالعلل التي تقابل تلك الامور وتحقق تلك المعاني ، كما تصافهم بالحلم والعلم والعزم والصبر والكتان والخبرة بالرجال والبلاد . قال :

" ثم اعلم ان كل امه وقرن وكل جيل وبني اب وجدتهم قد برعوا في الصناعات وفضلوا الناس في البيان ، ووافقوهم في الآداب ، وفي تأسيس الملك ، وفي البصر بالحرب ، فانك لاتجدهم في الغاية وفي اقصى النهاية ، الا ان يكون الله قد سخرهم لذلك المعنى بالاسباب ، وقصرهم عليه بالعلل التي تقابل تلك الامور ، وتصلح لتلك المعاني ؛ . . . وهي معان تشتمل على مذاهب غريبة وخصال عجيبة . فمنها : ما يقضى لاهله بالكرم وبهيبته الهمة وطلب الغاية ، ومنها ما يدل على الادب السديد والرأى الاصيل ، والفطنة الثاقبة والبصيرة النافذة . الا ترى انه ليس بد لصاحب الحرب من الحلم والعلم ، والعزم والعزم ، والصبر والكتان ، ومن الثقافة وقلة الغفلة وكثرة التجربة . ولا بد من البصر بالخيال والسلاح والخبرة بالرجال والبلاد والعلم بالمكان والزمان والمكايد ، وبما فيه صلاح هذه الامور كلها . " (١)

وقد ارفق الجاحظ ملاحظاته في الترك باستدراك مفاده ان اخلاق التسرك ليست واقعا نفسيا يصدق على جميعهم وانما هو الاغلب عليهم والاظهر (٢).

(١) المصدر السابق ، ص ٦٧ و ٧٣ .

(٢) انظر : المصدر نفسه ، ص ٧٣ .

انسجاما مع مقولة الجاحظ التي ترى ان " لكل امة نصيبا من النقص ومقدارا من الذنوب . . . وانا يتفاضل الناس بكثرة المحاسن وقلة المساوي" (١) ، فان الترك ايضا لم تسلم من النقد " لان الاشتغال على جميع المحاسن والسلامة من جميع المساوي" دقيقها وجليلها وظاهرها وخفيها ، فهذا لا يعرف" (٢) وقد حشد الجاحظ عيوب الترك بقوله :

" . . . والذي يوحش منهم ، الحنين الى الاوطان ، وحب التقلب في البلدان ، والصباية بالفارات ، والشغف بالنهب ، وشدة الالف للعبادة ، مع ما كانوا يتذكرون من سرور الظفر وتتابعه ، وحلاوة المغنم وكثرتهم ، وملاعبهم في تلك الصحارى ، وترددهم في تلك المروج ، والا يذهب بطول الفراغ فضل نجدتهم باطلا ، ويصير حدهم على طول الايام قليلا " (٣)

والملاحظ ان الجاحظ في عرض ماأخذ على الترك قد سلك مسلكا تعليميا - ان لم يكن متعاطفا ، مع هذا الجنس الحيوى للخلافة العباسية . اما بالنسبة الى حب تغلبهم في البلدان والصباية بالفارات ، فقد ردهما الجاحظ الى نزعتهم الحركية الغالبة عليهم :

" ومن حذق شيئا لم يصبر عنه ومن كره امرا فرمته . . . ذلك ان الترك قوم يشد عليهم الحصر والجثوم ، وطول اللبث والمكث ، وقلة التصرف والتحرك ، واصل بنيتهم انما وضع على الحركة ، وليس للسكون فيهم نصيب . . . " (٤)

واما خصلة الحنين الى الوطن فقد ردها الجاحظ الى شدة مناسبة تركيبهم وبنيتهم للبيئة الجغرافية والاجتماعية في وطنهم قال :

" وانا خصوا بالحنين من بين جميع العجم لان في تركيبهم واخلاقهم طبائعهم من تركيب بلدهم وتربيتهم ، ومشاكله مياهم ومناسبة اخوانهم ،

(١) الجاحظ ، " رسالة في مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٣٧ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٦٢ - ٦٣ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٦٣ و٦٥ .

ما ليس مع احد سواهم . الا ترى انك ترى البصرى فلا تدرى أبصرى
هو ام كوفي . . . وانت لا تغلط في التركي ، ولا تحتاج فيه الى قيافة
ولا الى فراسة ، ونساؤهم كرجالهم ، ودوابهم تركية مثلهم (١) . . . ومحبّة
الوطن شي* شامل لجميع الناس . . . ولكن ذاك في الترك اغلب ، وفيها
ارسخ ، لما معها من خاصة المشاكلة والمناسبة ، واستواء الشبه وتكافؤ
التركيب . . . (٢)

كما ان جهل قادة الترك باقدارهم ، وعدم انزالهم المنزل اللائق بهم في فئة
المقاتلة ، ضاعف من حنينهم الى بلدهم وكرههم عندهم المقام :

" ومن اعظم ما كان يدعو الترك الى الشرود ويبعثهم على الرجوع ، ويكره
عندهم المقام ، ما كانوا فيه من جهل قوادهم باقدارهم ، وقلة معرفتهم
باخطارهم ، واغفالهم موضع الانتفاع بهم ، . . . ولم يقنعوا ان يكونوا في
الحاشية والحشوة ، وفي غمار العاة ، ومن عرض العساكر ، وانفوا من ذلك
لانفسهم ، ورأوا ان الضيم لا يليق بهم ؛ وان الخمول لا يجوز عليهم . . . (٣)

بيد ان الجاحظ سرعان ما استدرك بقوله ان خصلة الحنين الى الوطن لم تستمر
في التأجج في نفوس الترك بعد ان " صادفوا ملكا حكما ، وباقدار الناس عليما ، لا يميل
الى سوء عادة ولا يجنح الى هوى ولا يتعصب لبلد على بلد ، يدور مع التدبير حيثما
دار ويقيم مع الحق حيثما اقام " . (٤) ان ذاك تغلبوا على اشواقهم وعاداتهم ، واقاموا
اقامة من قد منح الحظ ودان بالحق ونبذ العادة وآثر الحقيقة ، ورحل نفسه

(١) وقد ذكر الجاحظ ذلك في "كتاب البغال" ، رسائل الجاحظ ، حيث صرح انه دخل
بلاد الترك ووجد كل شي* فيها تركيا . راجع "كتاب البغال" ، رسائل الجاحظ ،

ج ٢ : ٣١٣

(٢) الجاحظ ، "رسالة في مناقب الترك" ، رسائل الجاحظ ، ١ : ٦٤ و ٦٣ .

(٣) الجاحظ ، "رسالة في مناقب الترك" ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٦٦ .

(٤) المصدر نفسه . ولعل الجاحظ يقصد بذلك الخليفة المتوكل التركي الام . والجدير

بالذكر ان الرسالة هذه كانت في الاساس موجهة الى الخليفة المعتصم لكنها لم
تصل اليه* لاسباب يطول شرحها* ص ٣٦ من الرسالة المذكورة . وقد فسر لها
ذكرها كتابي بعامل خوف الجاحظ من كان حول المعتصم من المتعصبين للقومية =

لقطيعة وطنه وآثر الامة على ملك الجبرية واختار الصواب على الالف * (١)
وقد اخذ الجاحظ على الاتراك الضعف الذي اعترى احدى قبائلها وهي
التغزغز (٢) ، وهو ضعف اصابها في شجاعتها وشهامتها اثر تدينها بالزندقة مماثل لما
اصاب الروم اثر تدينها بالنصرانية . قال :
... والى مثل ذلك صارت حال التغزغز من الترك ، بعد ان كانوا
انجاد هم وحماهم وكانوا يتقدمون الخرخية (٣) ، وان كانوا في العدد

(=) العربية والحاقدين على الترك ما دفع الجاحظ بالانتظار الى حين تبلسغ
سطوة الترك اوجها وكان ذلك في عهد الستوكل . انظر الترك في مؤلفات
الجاحظ ، ص ١٩٨-١٩٩ .

(١) الجاحظ ، "رسالة في مناقب الترك" ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٦٧ .
(٢) (٣) التغزغز والخرخية قبيلتان من اصل تركي مجاورتان للبلاد الاسلامية ، اى في
منطقة ما وراء النهر ، وكانتا تتكلمان لغة واحدة . وكان على من يريد الوصول الى
بلاد الصين ، المرور ببلاد التغزغز والخرخية او القرق . وذلك انطلاقا من
فرغانة ، التي تقع شمال نهر سرداريا في مدة شهر للوصول الى بلاد القرق
فالتغزغز . وتستغرق الرحلة منهما الى الصين مدة شهرين . راجع :

Encyclopaedia of Islam, old edition, s.v. "Turks," by W. Barthold
Encyclopaedia of Islam, old. ed., s.v. "Toghuzghuz," by W. Barthold.

ويرى صالح احمد العلي في تحقيقه لرسالة الجاحظ "الوطان والبلدان" ان
الخرخية هو الاسم الذي اطلقه العرب على قبيلة قارلوق التركية التي كانت
تسكن اراضي شاسعة شرقي فرغانة . واما التغزغز فالاسم الذي اطلقه العرب
على قبيلة طوغوز اوغوز اى التسعة اوغوز التركية التي سكنت الاراضي الواقعة في
الشمال الغربي من مناطق الخرخية وتمتد الى بلاد الصين . انظر احمد صالح
العلي ، كتاب البلدان ، (بغداد : مطبعة الحكومة ، ١٩٧٠) مسئلة
من مجلة كلية الآداب ، ص ٤٧١ .

واما ذكرها كتابجي فقد رأى ان الخرخية كانوا عبيدا للتغزغز وعصوا عليهم وخرجوا
الى بلاد التركستية ، واستولوا عليهم وقهروا سلطانهم ومنها خرجوا الى بلاد
الاسلام وهم تسع فرق ، في حين بقي الغز د ونهم ثقافة . انظر ايضا :

Encyclopaedia of Islam, new ed., s.v. "Karluk," by C.E. Bosworth.

ورأى كتابجي ايضا ان التغزغز ليست الا قبيلة واحدة من اثنتي عشرة قبيلة تدعى
بالغز او الغزية وهي من اكبر قبائل الاتراك التي تفرع السلاجقة والعثمانيون (=)

اضعافهم . فلما دانوا بالزندقة - ودين الزندقة في الكف والسلم اسوأ
من دين النصارى - نقصت تلك الشجاعة ، وذهبت تلك الشهامة . . . حتى
اعتراهم مثل ما يعترى الجبناء حتى صاروا يتكلفون القتال تكلفا . . . وخرجوا
من حدود الغالبية الى ان صاروا مغلوبين . (١)

اي ان الجاحظ رأى ان الاثراك المستقدمين من وراء النهر لخدمة الخلافة
لم يكونوا جميعا شجعانا وانه كان يعترى بعضهم الجبن كما تقدم .

(=) منها ، بهيد انه لم يذكر الضعف الذي اشار اليه الجاحظ وانما قال اعتمادا
على معجم البلدان لياقوت الحموى : " ليس في ملوك العالم اشد من رجال
ملك التغرغز ، ولا اجراً منه على سفك الدماء " . راجع : زكريا كسابجي ، التسرك
في مؤلفات الجاحظ ، ص ٣٠-٣٤ . وقد سقى المؤلف الخرخية بالخرلج
ايضا . والجدير بالذكر ان الجاحظ نفسه حين كرر ما اخذه على التغرغز فسي
كتابه التربيع والتدوير (تحقيق شارل يلا) الفقرة ١٣٨ ، ص ٧٧ - نفس
ما ذكره عن الروم اعلاه ، وقال : " فما بال الروم تمنع ان تسترق وان تسلب ولهم
من دينهم قتال ولا جدال ولا مكافحة ولا دفع ؟ "

(١) الجاحظ ، " كتابه في الاوطان والبلدان " ، رسائل الجاحظ ، ج ٤ : ١٢٦-١٢٧ .

الفصل السادس

=====

الصين

=====

آراء الجاحظ في الصين :

رأى الجاحظ ان اهل الصين قد خصوا من بين جميع الامم ، بالصناعات اليدوية قال :

" فاما سكان الصين فانهم اصحاب السبك والصياغة والافراغ والاذابة ، والاصباغ العجيبة ، واصحاب الخرط والنجر والتصاوير ، والنسج والخط . ورفق الكف في كل شي يتولونه ويعانونه ، وان اختلف جوهره ، وتباينت صنعة ، وتفاوت ثمنه . (١)

وقال الجاحظ ان هذا الفضل ما فتحه الله على سكان ذلك الاقليم ، انسجاما مع نظرتة التي ترى اختصاص امة ما يعود الى كونها مسخرة من الله بعلة واسباب للوصول الى ذلك الواقع السيز . قال :

" . . . الا ترى ان اهل الصين والتبت ، حذاق الصناعات ، لها فيها الفرق والحذاق ، ولطف المداخل ، والاتساع في ذلك ، والغوص على غامضه ومعينه ، وليس عندهم الا ذلك . فقد يفتح لقوم في باب الصناعات ولا يفتح لهم في سوى ذلك . . . ثم اعلم بعد ذلك كله ان كل امة وقسور وجيل ونياب وجدتهم قد برعوا في الصناعات ، وفضلوا الناس فسي البيان ، اوافقهم في الآداب ، اوفي تأسيس الطك . . . فانك لا تجدهم في الغاية وفي اقصى النهاية ، الا ان يكون الله تعالى قد سخرهم لذلك المعنى بالاسباب ، وقصرهم عليه بالعلل التي تقابل تلك الامور وتصالح لتلك المعاني . لان من كان متقسم الهوى ، مشترك الرأي ، متشعب النفس ، غير موثر على ذلك الشئ ، ولا مهيا له ، لم يحذاق من تلك

(١) الجاحظ ، " رسالة في مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، ج ٣ : ٢١٥ - ٢١٦ . وفي رأى الجاحظ ان اهل الصين مقدمون على الروم في هذه الصناعات . راجع كتاب الترميز والتدوير ، تحقيق شارل بلا ، الفقرة ٦٤ ، الصفحة ٣٧ .

الاشياء شيئا باسره ، ولم يبلغ فيه غايته ، كأهل الصين في الصناعات ،
واليونانيين في الحكم والآداب (١)

اى ان واقع الفضل لامة ماله وجهان : الوجه الالهي الذي يقسم ذلك
الفضل فيفتح بابه لأمة دون غيرها ، والوجه البشرى الذي يمثل الاستعداد النفسي
الارادى القابل لذلك الحكم الالهي . ولكن باب الصناعات الذي فتح لليونان
وللصين لم يبلغ طابع الحكمة لدى اليونان على انه الاغلب عليهم في حين هو الطابع
الوحيد الغالب على اهل الصين ، لانه في مفهوم الجاحظ لم يفتح لهم فضل غير ،
لان اهل اليونان مسخرة لتكون اهل حكمة ، واهل الصين مسخرة لتكون فعلة : قال :

" . . . فاليونانيون يعرفون العلل ولا يباشرون العمل ، وسكان الصين
يباشرون العمل ولا يعرفون العلل ؛ لان اولئك حكما ، وهو لا فعلة . " (٢)

وقد استدرك الجاحظ على حكمه التعميمي الذي اطلقه في اختصاص اهل الصين
بالصناعات حين ذكر ان ذلك لا يلزم جميعهم ان يكونوا فعلة وحذاقا بالصناعات ، ولكن
ذلك هو الاغلب عليهم والاعم والاظهر :

" وليس في الارض كل تركي كما وصفنا ، كما انه ليس كل يوناني حكيما ، ولا كل
صيني حازقا . . . ولكن هذه الامور في هو لا اعم واتم ، وفيهم اظهر
واكثر . " (٣)

وواضح من استدراك الجاحظ اعلاه انه ان كان ينطبق على الامم المعتمدة التي
فتح امامها اكثر من فضل واحد ، ثم غلب عليها فضل منها ، فان ذلك غير واضح مع
الصين الذين لم يفتح امامهم سوى فضل واحد كما بين الجاحظ .
وتجدر الاشارة الى ان الجاحظ لم ينف مقولة السودان في معرض فخرها على
البيضان ، ان اهل الصين يعدون من السودان . (٤) كما ان الجاحظ اورد مقولة لسنن

(١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٥ : ٣٦ وايضا : رسالة في مناقب الترك ، رسائل الجاحظ ،

٣ : ٢١٣ - ٢١٤ .

(٢) الجاحظ ، " رسالة في مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ٢١٦ .

(٣) الجاحظ ، " رسالة في مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، ج ٣ : ٢١٩ .

(٤) الجاحظ ، " رسالة في فضل السودان على البيضان " ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٢١٦ .

دخل بلاد الصين من تجار التبت ، مشيرا الى السرور الذي اعتراه طيلة مكوثه فيها ، قال :

" ويزعم تجار التبت من قد دخل الصين والزابج (١) وقلب تلك الجزائر
ونقب في البلاد ان كل من اقام بقصبة تبت ، اعتراه سرور لا يدري ما سببه
ولا يزال متبسما ضاحكا من غير عجب حتى يخرج منها . . . " (٢)

وبعد ، فان الجاحظ لم يتناول اهل الصين بالنقد وذلك في جميع
كتابه التي وصلتنا .

(١) الزابج اسم جزيرة قرب الصين وهي تعرف اليوم بسومطره . ذكر المستشرق غابرييل
فيراند في دائرة المعارف الاسلامية قول ابن خردادبه عنها وهوان ملكا يدعى
اسحق بن عمران المتوفى ٩٠٧م كان يحكمها ويحكم " كله " وان جزيرة الزابج
كانت مشهورة بالكافور . كما نقل المستشرق المذكور قول الادريسي (١١٥٤م) ان
سكان جزر الزابج كانوا يأتون الى بلاد الزنج بواسطة السفن وان لغتهم كانت
واحدة . وخطأ المستشرق قول السعدي ان جزر الزابج وكله وسرنداب (سيلان)
كانت ملوكة من قبل المهرابا . انظر :

Encyclopaedia of Islam, old edition, s.v. "Zabag," by Gabriel Ferrand .

والجدير بالذكر ان الجاحظ عد الزابج في آخر اطواق العمران . انظر
" رسالة في فخر السودان على البيضان " ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٢١٨ . كما
انه ذكرها في كتاب التربيع والتدوير بتحقيق شارل بلا ، الفقرة ٦٤ الصفحة ٣٧ .
والزابج تلفظ بفتح الباء وكسرهما ايضا .
(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٧ : ٢٣٠ .

الفصل السابع

=====

اليونان

=====

مناقب اليونان

نسب الجاحظ الى اليونان معرفتها بالحكمة والصناعات . الا انه شدد على غلبة طابع الحكمة عليهم واكتفائهم في صناعتهم بكل ما شأنه ان يجعل الحياة سعيدة " فاستخرجوا الآلات والادوات والملاهي التي تكون جمالا للنفس وراحة بعد الكد وسروا يداوى قرح الهموم" (١). وتفسير غلبة طابع الحكمة عليهم في رأى الجاحظ ان اليونانيين كانوا " اصحاب حكمة ولم يكونوا فعلة . . يرغبون في العلم ويرغبون عن العمل . . فلم يكونوا تجارا ولا صنعا باكتهم ولا اصحاب زرع ولا فلاحة ومنا وغرس ولا اصحاب جمع ومنع وحرس وكذا" (٢) اما انواع الصناعات فقد ذكرها الجاحظ بقوله :

" . . . وصنعوا من المرافق ، وصاغوا من المنافع كالقرصطونات ، (٣) والقبانات ، والاسطرلابات (٤) ، وآلة الساعات ، وكالكونيكا (٥) ،

(١) الجاحظ ، "رسالة في مناقب الترك" ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٦٨ و ٦٧ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) القرصطون ضرب من القبان . انظر : الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ١ : ٨١ والجديسر

بالذكر انه نسب للروم هذه الصناعة . انظر "مقالة الاخبار وكيف تصح" ، ص ٩٨-٩٩ .

(٤) الاسطرلاب او الاسطرلاب مقياس النجوم والكلمة مأخوذة عن اليونانية اسطرلابون

واسطر هو النجم ولا بون هو المرأة ٣ نظر الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ، تحقيق فان

فلوتن (ليدن : بريل ، ١٩٦٨) ص ٢٣٢ . والكلمة نفسها تفيد عدة آلات تخدم

امورا نظرية وعملية في علم الفلك والآلات لقياس خطوط الطول والعرض وآلات لقياس

الوقت . ولكن الجاحظ اعلاه يقصد بها الآلة التي يعرف بها هيئة الفلك وصورة

الكواكب ، دون سائر الآلات . ان كلمة اسطرلاب حين تستعمل مفردة يقصد بها

المعنى المذكور ، اي الاسطرلاب المسطح الذي يعرف بالعربية بذات الصفائح ؛

من الصفائح والآلة التي تشمل صفائح واسطوانات لمعرفة صورة الكواكب . راجع :

Encyclopaedia of Islam, new edition, s.v. "Aṣṭurlāb," by W. Hartner.

(٥) الكونيا هي اداة للنجارين يقدرين بها الزاوية القائمة . انظر : الخوارزمي ، مفاتيح

العلوم ، ص ٣٥٥ .

وكالشيزان (١) ، والبركار (٢) ، وكأصناف المزامير والمعارف ، وكالطبيب
والحساب والهندسة واللحن ، وآلات الحرب كالمجانيق ، والمعدات (٣) ،
والرتيلات ، والدبابات (٤) ، وآلة النقاط (٥) ، وغير ذلك مما يطسول
ذكره . (٦)

وقد عدّ الجاحظ اليونان " اصحاب حكمة وفلسفة وصناعة منطق " (٧) مكثفيا بتسمية
اهم حكما اليونان وعلمائهم وكتبهم وبذكر بعض مقولات الحكمة لديهم . اما حكما اليونان
وكتبهم فقال فيها :

- (١) لم اهتم الى معناها . وفي دائرة المعارف الاسلامية اشارة الى معبد شميز
Shiz وهو غير مقصود اعلاه . وقد اخبرني الدكتور ماجد فخرى ان الكلمة
المذكورة تحتل تحريفا لان لا وجود للشين في اليونانية ولعل الجاحظ يريد
{ uyo'v (الكيسفون) وهي تعني النبر ، آلة الفلاحة والحراث التي توضع على
رأس الثور .
- (٢) آلة هندسية مركبة من ساقين متصلتين تثبت احدهما وتدور حولها الاخرى ترسم
بها الدوائر والاقواس . تسمى بالعامية " البرجل " وهي في الفارسية " بركار " . انظر
حاشية رقم ٦ ، " رسالة في مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، تعليق عبد السلام
هارون ، ج ١ : ٦٨ . والخوارزمي ، مفاتيح العلوم ، ص ٣٥٤ .
- (٣) المرادة منجنيق صغير والمنجنيق من آلات الحروب ترمى بها الحجارة فسي
القتال . انظر : مفاتيح العلوم ، ٣٤٩ .
- (٤) ذكرها الجاحظ في كتاب الحيوان ، ١ : ٨٢ وقال المحقق هارون انها آلة تتخذ للحرب
تدفع في اصل الحصن فينقبونه وهم في جوفها وانظر الحاشية التالية .
- (٥) الدبابات وآلة النقاط او النقاطات من الآلات المتحركة التي عرفت عند العرب
بعلم الحيل . وكان يوضع في النقطة باب المدفع وباب السيف . انظر : مفاتيح
العلوم ، ص ٣٥٤ . وآلة النقاط هي غير النقطة ، اسم احدى النجوم السيارة .
المصدر نفسه ، ٢١٣ .
- (٦) الجاحظ ، رسالة في مناقب الترك ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٦٨-٦٩ .
- (٧) الجاحظ ، البيان والتهيين ، ٣ : ٢٧-٢٩ .

"... ان كتاب المنطق والكن والفساد ، وكتاب العلوى (١) ، وغير ذلك لارسطاطاليس ، وليس برومي ولا نصراني . وكتاب المجسطي لبطليموس وليس برومي ولا نصراني . وكتاب اقليدس (٢) لاقليدس ، وليس برومي ولا نصراني . وكتاب الطب لجالينوس ، ولم يكن روميا ولا نصرانيا . وكذلك كتب ديمقراط وبقراط وافلاطون ، وهو "اناس من امة قد بادوا وبقيت آثار عقولهم ، وهم اليونانيون ... وقد علمنا ونحن على حداثة أسناننا وتقدم الناس قبلنا ، ان جالينوس قد كان باثنا في طبه وان الارسطاطاليس كان البائن في المنطق " (٣) .

ويعكس النص اعلاه تأكيد الجاحظ على الفرق بين امة اليونان وامة الروم . فالاولى امة بادت ولم يبق سوى آثار عقولها والثانية امة ذات ملك ورثت آثار اليونان الفكرية "لقرب الجوار وتداني الدار" (٤) . ولكن الجاحظ لا يقر بالفضل لامة الروم التي حفظت تراث اليونان من الضياع ، ودفنت كتب اليونان في خزائنها دون ان تنتفع بها ، بل يدين بالفضل الى امة اليونان وان كانت قد انقرضت منذ عصور كثيرة ... (٥)

- (١) هو كتاب الآثار العلوية كما دعاه الجاحظ في كتاب الحيوان ٦ : ٢٨٠ وقد ترجمه يحيى بن عسدي وهو يعرف بـ "De Meteorologica" اي العلم السدي يتعلق بشؤون الرعد والبرق والخسوف والكسوف والمد والجزر ، انظر ابن النديم ،
- (٢) الفهرست (بيروت : مكتبة خياط ١٩٦٤) تحقيق غوستاف فلووجل ، ص ٢٥١ . نسب الجاحظ لاقليدس وجالينوس وبطليموس "علوم الصناعات والارفاق والآلات" ايضا . راجع كتاب الحيوان ١٠ : ٨٠ ولعل كتاب اقليدس هو كتاب النغم السدي يعرف بالموسيقى . انظر ابن النديم ، الفهرست ، ص ٢٦٦ .
- (٣) الجاحظ ، "كتاب في الرد على النصارى" ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ٣١٤ . وكتاب العثمانية ، ص ٢٦٦ .
- (٤) الجاحظ ، كتاب في الرد على النصارى ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ٣١٥ . وقد اشار الجاحظ الى اليونان ايضا في البيان والتبيين ١٠ : ١٨٨ فقال انهم من الامم البائدة من العجم .
- (٥) هذا الاستنتاج رده المستشرق فرانز روزنتال في كتابه :

Technique and Approach of Muslim Scholarship, p. 72-73.

وسا يناقض هذا الاستنتاج ان الجاحظ في "كتاب الرد على النصارى" ج ٣ : ٣١٥ افاد بان الرومان تفاعلوا مع الفكر اليوناني حين اضافوا بعضه الى انفسهم (=)

اما مقولات الحكمة التي ذكرها الجاحظ لفلاسفة اليونان فقد وردت في معرض اشارته بنظام توريث العلم عند فلاسفة اليونان دون المال ، حيث يذكر ايضا مفهومهم لماهية الكتب النافعة ، التي طرحها ديمقراط :

"... وكانت فلاسفة اليونانية تورث البنات العين ، وتورث البنين الدين... وكانت تقول لا تورثوا الابن من المال ، الا ما يكون عوناً له على طلب المال ، واغذوه بحلاوة العلم ، واطبعوه على تعظيم الحكمة ليصير جمع العلم اغلب عليه من جمع المال ، وليرى انه العدة والعتاد ، وانه اكرم مستفاد... فخير ميراث ورث كتب وعلم... واما ديمقراط فانه قال : ينبغي ان يعرف انه لا بد من ان يكون لكل كتاب علم وضعه احد من الحكماء ، ثمانية اوجه : منها الهمة ، والمنفعة ، والنسبة ، والصحة ، والصنف ، والتأليف ، والاسناد ، والتدبير. فأولها ان تكون لصاحبه همة ، وان يكون فيما وضع منفعة ، وان يكون له نسبة ينسب اليها ، وان يكون صحيحاً وان يكون على صنف من اصناف الكتب معروفاً به ، وان يكون مؤلفاً من اجزاء خمسة ، وان يكون مسنداً الى وجه من وجوه الحكمة ، وان يكون له تدبير موصوف . فذكر ان ابقراط قد جمع هذه الثمانية اوجه في هذا الكتاب ، وهو كتابه الذي يسمى "افوريسمو" ، تفسيره : كتاب الفصول (١) ."

(=) وحولوا البعض الآخر الى ملتهم. في رأى الجاحظ ان تفاعل الروم مع الفكر اليوناني امر تاريخي لا ينكر ، لكنه تفاعل اساء الى الفكر اليوناني الموروث وادخل عليه مقولات الزندقة والدهرية . راجع : كتاب في الرد على النصارى ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ٣١٥ . واخطأ روزنتال في استيعاده ان يكون الروم قد تفاعلوا مع تراث اليونان ، اما قوله ان الجاحظ لا يقر بفضل للرومان ، فهو له ما يؤيده في كلام الجاحظ الذي تقدم .

(١) كتاب الفصول لابقراط شرحه موفق الدين عبد اللطيف البغدادي (ت ٦٢٩) والاصح كتابته "افوريسموى" وهي صيغة الجمع وتعني المأثور من الحكمة . وهو ————— aphorism " بالفرد و" aphorismo " بالجمع. والنص اعلاه من كتاب الحيوان ١ : ٩٨ - ١٠١ و ١٠٢ . وتجدر الاشارة الى انه كان لارسطو او "صاحب المنطق" كما يدعوه الجاحظ ، الحظ الا وفريقين علماء اليونان ، من اشارات الجاحظ الى كتابه "في علوم الحيوان" الذي يقع فسي (=)

ومن مقولات الحكمة لدى اليونان ما ذكره الجاحظ عن مفهومهم للعلم والعمل .

قال :

"... ايهما احسن ؟ قول بقراط (١) مفسرا : العمر قصير والصناعة طويلة والزمان جديد ... ام قول افلاطون مجملا : لولا ان في قلبي انسي لا اعلم تثبيتا ، لا اني اعلم ، لقلت اني لا اعلم ، ام تواضع ارشجانوس (٢) حيث يقول : ليس معي من فضيلة العلوم الا علمي بانني لست بعالم ... وقول ديمقراط عالم معاند خير من عالم منصف جاهل ... ثم انظر في قول ديسيوموس (٣) لولا العمل لم يطلب علم ... ثم انظر في قول تومقراط (٤) العلم روح والعمل بدن ... وانظر في قول

(=) تسع عشرة مقالة ترجمها يحيى بن البطريق وذكرها ابن النديم في الفهرست . ويعكس ذلك الاثر البين الذي تركه الفكر اليوناني العلمي في نفوس المفكرين المسلمين . راجع كتاب الحيوان للجاحظ . وفي كتابات الجاحظ تأثر واضح بمفهوم الاخلاط والامزجة الاربعة التي نادى بها الطبيب اليوناني جالينوس بين ١٣٠ و ٢٠١ للميلاد وهي الدم والبلغم والبرودة السوداء والبرودة الصفراء . راجع كتاب الخلا ص ١٥٤ وكتاب التربيع والتدوير تحقيق بلا ص ٨٣ ، ورسالة في الجد والهزل ، رسائل الجاحظ ج ١ : ٢٣١ - ٢٧٨ ورسالة الجوابات في المعرفة ، المصدر نفسه ، ٤ : ٥٩ . كما يعكس كتاب التربيع والتدوير المذكور ، اهتماما باعلام الموسيقى والفكر لدى اليونان ، انظر الفقرة ١٥٠ ، ص ٨٢ من كتاب التربيع والتدوير .

(١) ورد في كتابات الجاحظ بصيغة ابقراط ايضا وهي المعروفة في المصادر العربية .

(٢) اما ان يكون احد تلامذة سقراط ، ايسخانيس Aischenes فتكون تهجئة العربية غير صحيحة لاسم الحقيقي المقترح ، او ان يكون كما اقترح شارل بلا ، Arsiganus فتكون تهجئة الجاحظ صحيحة ، وهو المذكور في فهرست ابن النديم .

(٣) قال الجاحظ عنه في كتاب الحيوان - ١ : ٢٨٩ ان ديسيوموس " كان مروراً وله نوادر عجيبة ، ما من نادرة الا وهي غرة وعين من عين النوادر " . وقال شارل بلا عنه انه عالم يوناني صاحب مؤلفات شهيرة لعلمي المررب في علم تحويل المواد الى ذهب . ويعرف في الترجمات اللاتينية بـ Rosinus . روسينوس ، الا انه ورد في كتابات الجاحظ بلفظ رسيوموس وزسيموس وديسيوموس . انظر كتاب التربيع والتدوير ، تحقيق بلا ، ص ٤٦ من الفهرس .

(٤) لم اهتم الى ترجمته .

افليمون (١) : العلم كان من العمل والعمل غاية والعلم رائد . . وقسول
ارسطاطاليمس : ليس طلبتي العلم طمعا في بلوغ قاصيته . . ولكن التمس
ما لا يسع جهله . . ثم انظر في قول مورسطوس (٢) عرفت اكثر المقصود
واقل ما يوقف عليه من البسوط . . وقليل الكثير وكثير القليل كثير . .
ثم انظر في قول ما سرجس (٣) : من قصر عن طلب العلم لرغبة او رهبة . .
كان حظه من الرغبة وحظه من الرهبة على مقدار حق الرهبة . (٤)

وان النزعة الجدلية في ادب الجاحظ غير بعيدة عن اعجابه " باللفظ المنطقي " (٥)
اليوناني الذي ذكره في كتاب الحيوان ، وعلمه " بان المقدمات لا بد ان تكون اضطرارية ،
ولا بد ان تكون مرتبة " (٦) وهي اساليب ترجع الى اليونان ، وقد استعملها الجاحظ
في كثير من كتاباته . (٧)

-
- (١) كاتب اغريقي عاش في القرن الثاني قبل الميلاد ، وكان معاصرا لبقرط . قال المحقق
عبد السلام هارون في تعليقه على قول الجاحظ ان " افليمون صاحب الفراسة " ان
لافليمون تصنيفا مشهورا في الفراسة خرج من اليونانية الى العربية ، طبع فسي
حلب سنة ١٣٤٧هـ / ١٩٢٩م يقع في خمس واربعين صفحة . انظر الجاحظ ،
كتاب الحيوان ، ٣ : ١٤٦ .
- (٢) مؤلف يوناني له كتابات في الآلات الموسيقية ، لم تحفظ الا عند العرب . انظر
كتاب التربيعة والتدوير ، ص ٣٠ من الفهرس .
- (٣) ماسرجس طبيب يهودي من البصرة . ترجم عدة مؤلفات سريانية الى العربية ولم
يكن يونانيا . وقد ورد بلفظ ماسرجويه في كتاب الحيوان للجاحظ ، ٤ : ١٩٢
و ٣ : ٢٧٥ و ٣٢٣ .
- (٤) الجاحظ ، كتاب التربيعة والتدوير ، تحقيق شارل بلا ص ٩٨ - ١٠٠ والنص نفسه
في " رسالة التربيعة والتدوير " ، رسائل الجاحظ ، (تحقيق حسن السندوي) ،
ص ٢٣٦ - ٢٣٨ .
- (٥) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ١ : ٩٠ .
- (٦) المصدر نفسه ، ١ : ٧٨ .
- (٧) راجع : فكتور شلحت اليسوعي ، النزعة الكلامية في اسلوب الجاحظ ، (القاهرة ،
دار المعارف ، ١٩٦٤) ص ٩١ - ٩٨ و ١٢٤ . حيث يظهر الاتجاه السوفسطائي
والاتجاه الارسطي وانظر دراسة يوسف فان اس التي يظهر فيها ان آثار الجاحظ
من اوائل المحاولات الكلامية التي تحاكي المنطق اليوناني :

والجاحظ وان عدّ اليونان من الامم البائدة فقد ساواها بالام المعتبرة حين
اشاد بفضيلة الحنين الى الاوطان لديها لما تعكسه هذه الفضيلة من طيب عنصر
ونفاسة جوهر. قال :

"... وقال بعض الفلاسفة : فطرة الرجل معجونة بحب الوطن . ولذلك
قال بقراط : يداوى كل عليل بعقاقير ارضه ، فان الطبيعة تتطلسع
لهوائها ، وتنزع الى غذائها . وقال افلاطون : غذاء الطبيعة من انجع
ادويتها . وقال جالينوس : يتروح العليل بنسيم ارضه كما تنبت الحبة
ببيل القطر" (١)

(١) "رسالة في الحنين الى الاوطان" ، رسائل الجاحظ ، ج ٢ : ٣٨٧ و٤٠٧ . وهذا
الرأى لا يناقض قول الجاحظ في كتاب الحيوان الذى ينتقد فيه الجماعات التى
لا تغادر مساكنها الوثبة ذات التربة والماء والهواء الغاسد . انظر كتاب الحيوان
٤ : ٧٠ - ٧٢ .

لا يجد الدارس مأخذا للجاحظ على اليونان الا كونهم يعبدون البروج والكواكب وديانتهم بالدهرية . وقد ذكر الجاحظ ذلك في معرض كلامه عن اشتراك اليونان في "دا" المنشأ والتقليد" الذي لم تسلم منه الامم المعتبرة المعاصرة للجاحظ او البائدة ، تحقيقا لمفهومه في تفاوت حال هذه الامم في الدنيا والدين (١) قال :

"... فقد علمنا جميعا ان عقول اليونانية فوق الديانة بالدهريسة والاستبصار في عبادة البروج والكواكب؛ وعقول الهند فوق الديانة بطاعة البدن، وعبادة البهائم... فدا" المنشأ والتقليد، دا" لا يحسن علاجه جالينوس ولا غيره من الاطباء . وتعظيم الكبرياء وتقليد الاسلاف والافدين الآباء والانس بما لا يعرفون غيره ، يحتاج الى علاج شديد والكلام في هذا يطول... (٢)"

ومن يدرس اقوال الجاحظ في الدهرية يلحظ انه لم يقصد دعاة هذا المذهب من المتكلمين المعاصرين له فحسب وانما قصد ايضا اصحاب هذا المذهب من مفكرى اليونان الذين كانوا يقولون بقدوم العالم ويقدمون النفع واللذة على سائر الغايات ويجعلون للفلك ما ليس له . قال :

"... والدهرى الذى ينفي الربوبية... وينكر جواز الرسالة، ويجعل الطينة قديمة، ويجحد الثواب والعقاب ، ولا يعرف الحلال والحرام... ويجعل الفلك الذى لا يعرف نفسه من غيره ، ولا يفصل بين الحديث والقديم... ولا يستطيع الزيادة في حركته ، ولا النقصان من دورانه... ولا الوقوف طرفة عين ولا الانحراف عن الجهة ، هو (٣) الذى يكون به

-
- (١) لان هذه الامم لا تخضع دينها للمقاييس العقلية المستحرة من التقليد .
(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٥ : ٣٢٦ - ٣٢٨ . وقد اشار الجاحظ الى عبادة اليونان قوة الهياولى وعبادتهم النجوم ايضا في كتاب التربيع والتدوير ، تحقيق شارل بلا ، الفقرة ١٣٤ ، ص ٧٦ .
(٣) "هو" اى الفلك الذى تقدم ذكره .

جميع الأبرام والنقض ودقيق الأمور وجليلها . . . لان الدهرى ليس يرى ان في الارض ديناً او نحلة او شريعة او ملّة . . . انما الصواب عنده . . . انه والبهيمة سيان . . . ليس القبيح عنده الا ما خالف هواه وليس الحسن عنده الا ما وافق هواه . وان مدار الامر على الاخفاق والدرك وعلى اللذة والالام ، وانما الصواب فيما نال من النفعة ، وان قتل الف انسان صالح لمنالة درهم ردى . . . (١)

باختصار ، فان الدهرى عند الجاحظ هو الذى " لا يقر الا بما اوجده العيان ، وما يجرى مجرى العيان ، ويستنكر احياء الموتى " (٢) ، ولا يقول بالتوحيد ولا يعترف الا الفلك وعمله ويرى ان ارسال الرسل يستحيل (٣) . وقد اورد الجاحظ مقولة استاذ النظام في الرد على مقولة الدهرية في اركان العالم التي لم تجعل الروح ركناً في تكوين الاشياء (٤) ، كما اورد تعجبه من قول اليونان بالهيولى وعبادتهم لها . (٥) ويلاحظ الدارس ان الجاحظ قد ساوى بين الروم واليونان في مقولتهم بالدهرية ولا يستطيع المرء الجزم ما اذا كان الروم ، الذين افسدوا الفكر اليوناني الذى ورثوه ، هم مصدر القول بالدهرية ام ان اليونان كانوا سببه . (٦)

(١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٧ : ١٢ - ١٣ . ومذهب اللذة او النفع هو ما دعا اليه الفيلسوف اليوناني ابيقور . انظر :

Encyclopaedia of Philosophy, (New York: Macmillan Publishing Co. 1967), s.v. "Epicurus," by P.H. Delacy.

(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٤ : ٩٠ .

(٣) المصدر نفسه ، ٦ : ٢٦٩ وقد انتقد الجاحظ مقولة الدهرية التي تطعن في ملك سليمان وملكة سبا انظر كتاب الحيوان ، ٤ : ٨٥ . كما اخذ عليهم نظرتهم في تأويل المعجزات تأويلاً طبيعياً ، كجعلهم الخسف كالزلازل . انظر كتاب الحيوان ، ٤ : ٧٠ - ٧٣ . وفي ذلك تأكيد لما اشرنا اليه مسبقاً ان المقصود بالدهرية هنا ، معاصرون للجاحظ ايضاً من المتأثرين بالفكر اليوناني .

(٤) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٥ : ٤٠ - ٤٧ .

(٥) المصدر نفسه ، ٥ : ٥٠ . وكتاب التربيعة والتدوير ، تحقيق بلا ، فقرة ١٣٤ ص ٧٦ .

(٦) راجع "كتاب الرد على النصارى" ، رسائل الجاحظ ، ج ٣ : ٣١٥ . ولكن ليس ما يمنع ان يكون بين الروم ، من قال بالدهرية التي تنفي الربوبية .

الباب الثاني

=====

آراء الجاحظ في الاسم غير المعتبرة

=====

الفصل الاول : آراء الجاحظ في الصقالبة

تعد آراء الجاحظ في الصقالبة كما في اصناف السودان ، تطبيقا لمقولة استأذه النظام في الاثر الحتمي للاقليم على الخلق والخلق . ولكن الفرق في معالجة الجاحظ للسودان والصقالبة ان السودان حظيت بفضل لم يتوافر للصقالبة وهو وجود من يدافع عن مناقبهم وانجازاتهم من حيث هم امة مهضومة الحقوق . ويجب ان تفهم المناقب القليلة التي ينسبها الجاحظ الى الصقالبة في ضوء هذا السياق الذي لا يرقى بها الى مصاف الامم المعتبرة ولا الى مرتبة الامم التي تطالب بحقوقها كالسودان وان صدر عن الجاحظ ما قد يفيد الاحتمال الاخير كما سنرى ادناه .

مناقب الصقالبة :

وسلم ان الجاحظ عد الخصاء مثله وقسوة (١) ، فان آراءه في الصقالبة المخصيين عرضها بصيغة الاقرار بواقع لا يمكن تجاهله ، وان كان لا يستسيغه . واولى هذه المناقب هي ان الصقالبة المخصيين مع خروجهم من شطر طبائع الرجال الى طبائع النساء ، لا يعرض لهم التخنيث . . . ورأيت ذلك في الزنج الاقحاح . (٢) فهذه ميزة سجلها الجاحظ للصقالبة على السودان . ومن مناقبهم ايضا ان شجاعة كل صقلي في الرماية تفي بمضرة قائد ضخم (٣) من قادة الروم الذين كانوا سبب خصائهم (٤) . قال الجاحظ :

-
- (١) راجع الجاحظ : كتاب الحيوان ١٠ : ١٢٤ حيث قال : " وحسبك بالخصاء مثله وحسبك بصنيع الخاصي قسوة " .
 - (٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ١٠ : ١٣٦ اي رأى الجاحظ ظاهرة التخنيث في الزنج .
 - (٣) المصدر نفسه ١٠ : ١٢٥ .
 - (٤) قال الجاحظ : وكل خصاء في الدنيا فانما اصله من الروم . المصدر نفسه ١٠ : ١٢٤ .

"... وهذا يدل على مقدار فرط الرغبة في النساء ، وعلى شهوة شديدة للمباذعة ، وعلى انهم قد عرفوا مقدار ما فقدوا وهذه خصلصة كريمة ، مع طلب الثوبة ، وحسن الاحدوثة " (١)

ومن مناقب الصقالبة ايضا ان ذكاً الصقلبي المخصي يفوق ذكاً السودانى المخصي . بعبارة اخرى ، فان الخصاء يعطى الصقالبة كما ينقص السودان . قال الجاحظ :

" فاما الخصيان من الحبشان والنوبة واصناف السودان ، فان الخصاء يأخذ منهم ولا يعطيهم ، وينقصهم ولا يزيدهم ، ويحطهم عن مقادير اخوانهم ، كما يزيد الصقالبة عن مقادير اخوتهم . . . " (٢)

والى جانب كون ذكاً الصقلبي المخصي يفوق ذكاً المخصي من السودان فان الجاحظ يلاحظ ان الصقلبي المخصي يفوق الصقلبي غير المخصي فيقول :

" ويعرض له ان اخوين صقلبيين من ام واب ، لو كان احدهما تؤام اخيه ، انه متى خصي احدهما خرج الخصي منهما اجود خدمة ، وافطن لاسبواب المعاطاة والمناولة ، وهولها اتقن وبها أليق ، وتجده ايضا اذكى عقلا عند المخاطبة ، فيُخَصُّ بذلك كله ، ويبقى اخوه على غثارة فطرته ، وعلى غباوة غريزته ، وعلى بلاهة الصقلبية وعلى سوء فهم العجمية . . . فأول ما صنع الخصاء بالصقلبي ، تركية عقله ، وارهاف حده ، وشحد طبعه ، وتحريك نفسه فلما عرف كانت حركته تابعة لمعرفته ، وقوته على قدر ما هيجه . فاما نساء الصقالبة وصبيانهم ، فليس الى تحويل طبائعهم ، ونقل خلقهم الى الفطنة الثاقبة ، والى الحركة الموزونة ، والى الخدمة الثابتة الواقعة بالسوافقة ، سبيل . . . " (٣)

(١) المصدر نفسه ، ١ : ١٢٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ١ : ١١٩ .

(٣) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ١ : ١١٦ - ١١٧ ولكن الجاحظ ما لبث ان حد من محاسن الصقالبة المخصيين حين نص على انه لا يوجد بينهم " من نفذ في صناعة تنسب الى بعض المشقة وتضاف الى شيء من الحكمة ، ما يعرف ببعده الروية والغشوص بادامة الفكرة الا ما ذكروا من نفاذ ثق في التحريك للاوتار وصناعة الدبوق ودعا الحمام الطوري وما شئت من صفات الصناعات " المصدر نفسه ، ص ١١٧ - ١١٨ .

وكان الجاحظ من خلال هذا النص ، وان اعطى حق الصقالبة من الفضل ، فهو في اقواله هذه لم يستطع ان يتجاوز ما سيذكره في مثالبهم وهواثر الاقليم على عقولهم كما سئرى في حينه . وحين حاول ان يتجاوز ذلك لم يفلح في تعليل بعض مناقبهم الا باقرار علة الخصاء المستعذة فيهم (١) ، ولعل المحاولة الوحيدة التي انصفتهم كانت بلسان اصناف السودان في رسالة فخرهم على البيضان حين قالوا ان افراط البياض ، كافراط السواد ، ردة فعل طبيعية ازاء عامل جغرافي قاهر لا تدل على نقص عقل ولا سوء فهم (٢).

(١) مع ما استدعته هذه العلة من اقوال غير مبررة في العجم ، الا ان يكون مبعثها تصور الجاحظ انهم مصدر علة الخصاء كما تقدم .

(٢) الجاحظ ، " كتاب فخر السودان على البيضان " ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٢٢٥ .

يستطيع الدارس ان يقول ان جميع مثالب الصقلية حقائق جزئية لسقولة النظام في اثر حتمية الاقليم ذى الحرارة الضعيفة والطبيعة الفاسدة على الخلق والخلق ، فالصقلية هي الامة التي لم تنضجها الارحام . قال الجاحظ :

" وكان يقول : ان الامة التي لم تنضجها الارحام ، ويخالفون في ألوان ابدانهم ، واحداق عيونهم ، وألوان شعورهم ، سبيل الاعتدال - لا تكون عقولهم وقراءتهم الا على حسب ذلك . وعلى حسب ذلك تكون اخلاقهم وآدابهم ، وشمالهم ، وتصرف همهم في لوهمهم وكرمهم ، لا اختلاف السبك وطبقات الطبخ . وتفاوت ما بين الفطير (١) والخمير ، والمقصر والساجز - وموضع العقل عضو من الاعضاء ، وجزء من تلك الاجزاء - كالتفاوت الذى بين الصقلية والزنج . وكذلك القول في الصور ومواضع الاعضاء " . . . (٢)

كما قال الجاحظ مدعيا رأى النظام بحثى بن زهير الذى قسم الناس تقسيما لونيا ونسب الى كل لون حظا من العقل :

" . . . فاذا ابيض الحمام كالفقيع فمثله من الناس الصقلابي ، فلأن الصقلابي فطير خام لم تنضجها الارحام ، اذ كانت الارحام في البلاد التي شمسها ضعيفة . . . وكما ان عقول سودان الناس وحرانهم دون عقول السمر ، كذلك بيض الحمام وسودها دون الخضر في المعرفة والهداية " . (٣)

-
- (١) الفطير ما يختبز من ساعته دون ان يختمر وينضج . والخمير ما ترك حتى ننضج واختمر . والفطير هو الصقلابي . قال الجاحظ في كتاب البرصان والعرجان : " يقول المتطبيعون وناس من المتفلسفين : الصقلابي من لم تنضجها الارحام فهو فطير " . انظر البرصان والعرجان ، ص ٤٤ .
- (٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٥ : ٣٥ - ٣٦ .
- (٣) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٣ : ٢٤٥ .

وقد اعتمد الجاحظ مقولة للدهرية لتأكيد واقع الصقالبة المتخلف ، حين ذكر
ان اجيال الصقالبة تمثل الولادة المتوقعة للتفاعل المستمر والمتشبه بطبيعة الماء
والهواء والتربة الفاسدة . قال الجاحظ :

" وقال الصنف الاخر (١) : لانكر ان يفسد الهواء في ناحية من النواحي
فيفسد ماؤهم وتفسد تربتهم ، فيعمل ذلك في طباعهم على الايام كما
عمل في طباع الزنج وطباع الصقالبة وطباع بلاد يأجوج ومأجوج . . . (٢)

وقد شبه الجاحظ الصقالبة ، حين تحدث عن الحمر (٣) بصورة القسور (٤)
اما فيما يتعلق بالصقالبة والامم ، فقد قال الجاحظ ان الصقالبة يعترضهم من كسي
البلاء ما لا يعترى السودان (٥) وان الصقالبة ابخل من الروم واقل ذكاء منهم اى انهم
يجمعون الغباء والبخل معا (٦) وكما اشرنا سابقا ، فان " غثارة فطرة الصقلي وغبابة غريزته
وبلاهته " (٧) هي سمات مصاحبة للأفراد غير المخصيين من الصقالبة حسب رأى الجاحظ .

-
- (١) من اصناف الدهرية كما يفهم من سياق الكلام . المصدر نفسه ، ٤ : ٧٠ .
 - (٢) المصدر نفسه .
 - (٣) المصدر نفسه ، ٤ : ٩٨ ، وانظر ايضا : ص ٧٢ . والمقصود بالحمر الروس .
انظر : المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ص ١٢٢ ولكن المحقق طه الحاجري
فهم ان المقصود بالحمر ، الصقالبة . راجع الجاحظ ، البخلا ، ٢٠٧ .
 - (٤) المصدر نفسه ، ٤ : ٩٨ .
 - (٥) الجاحظ ، كتاب البرصان والعرجان والعميان والحولان ، ص ٣٩ .
 - (٦) الجاحظ ، البخلا ، ١٤٧ و " كتاب فخر السودان على البيضان " ، رسائل
الجاحظ ، ج ١ : ١٩٦ .
 - (٧) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ١ : ١١٦-١١٧ .

نعرض في هذا القسم آراء الجاحظ في مناقب السودان ومثالبهم ثم نعرض آراء السودان في انفسهم .

مناقب السودان :

عدّ الجاحظ من اصناف السودان الامم التالية : (١) الزنج (١) والحباشان والنوبة (٢) والسند (٣) والهند (٤) في حين روى عن السودان انهم يضمنون اليهم العرب والصين والقيط والبربر والزايج . ومع ان الجاحظ جعل الهند من السودان غير انه عند الهند من الامم المعتبرة . وقد عرضنا مناقبها ومثالبها في بحثنا حول الهند . ولذلك فسنقتصر على الكلام في اولئك السودان الذين لم يعددهم الجاحظ من الامم المعتبرة ونبدأ بالزنج .

من مناقب الزنج طيب افواهها (٥) وطول خطبها (٦) وسهولة لغتها وخفتها (٧) وشدة بطشها (٨) وقد اشار باستعمالها العصي مثلما تفعل العرب في حروبها . وقد قال الجاحظ ان الزنج قبيلتان وهما آيتان في العدد والصبر قال :

-
- (١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٣ : ٢٤٥ .
 - (٢) المصدر نفسه ، ١ : ١١٣ و ١١٩ .
 - (٣) المصدر نفسه ، ١ : ١١٣ .
 - (٤) الجاحظ ، " كتاب البغال " ، رسائل الجاحظ ، ج ٢ : ٣٥٥ .
 - (٥) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٢ : ١٥٤ .
 - (٦) المصدر نفسه ، ٧ : ٢٠٥ .
 - (٧) المصدر نفسه ، ٥ : ٢٨٩ .
 - (٨) المصدر نفسه ، ٢ : ٧٩ .

"... والزنج نوعان : احدهما يفخر بالعدد ، وهم يستمون النمل ،
والآخر يفخر بالصبر وعظم الابدان ، وهم يستمون الكلاب . واحدهما
" يكيو " والاخر " ينيو " . فالكلاب " تكبو " والنمل " تنبو " . (١)

ومن مناقبهم التي ذكرها الجاحظ السخاء حين قال " ان الله فضلهم بالجود " (٢).
اما الحبشان والنوبة فقد ذكرهما الجاحظ معا ومن مناقبهما ما ذكره من فضل ملوك
الحبشة النجاشي على ايلاف قريش، (٣) فضلا عن تكريمهما الفيلة وتربيتها الخيسل، (٤)
وتداويهما بفرس الهام من وجع الطحال (٥) . اما امة السند فمن مناقبها استعدادها
الجيد لتقبل الفصاحة العربية (٦) واتقانها شؤون الصيرفة (٧) وحسن اصواتها (٨) ومهارتها
في الطبخ وفي شؤون الصيدلة (٩) .

(١) قال المحقق عبدالسلام هارون انه وجد اضطرابا في رسم هاتين الكلمتين . فمرة
بدئا بالياء ومرة بدئا بالتاء . واقترح ان تكون اللفظتان من الفاظ الزنج . قال :
" فقول الجاحظ فالكلاب تكبو لعل معناه تسمى تكبو بالزنجية . " وفي لسان
العرب ما يشير الى الاقتراح المذكور بان يكون اللفظان اسبي علم وليس
فعلين . ولكن ابن منظور اورد معنى ايجابيا لفعل كبا ونبا ، وهو الارتفاس
والعظمة ، مما يطرح مجددا احتمال استعمالها بصيغة الفعل . انظر الجاحظ ،
كتاب الحيوان ، ٤ : ٣٥ ، ولسان العرب لابن منظور ، مادة كبا .

(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٧ : ٢٠٥ اما في البخلا : ١٤٧ فقد ربط
جودهم بقلّة تدبيرهم للعواقب .

(٣) الجاحظ ، " كتاب في الاوطان والبلدان " ، رسائل الجاحظ ، ج ٤ : ١٢٧ .

(٤) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٣ : ٤٣٥ و ٧ : ١٠١ .

(٥) المصدر نفسه ، ٧ : ١٣٨ و ٢٥١ .

(٦) المصدر نفسه ، ٣ : ٤٣٤ .

(٧) المصدر نفسه .

(٨) المصدر نفسه ، ٣ : ٤٣٥ .

(٩) المصدر نفسه .

اما مثالب الزنج التي ذكرها الجاحظ فهي مأخوذة من علماء الدهرية (١) ومن مشى بن زهير المعروف بصاحب الحمام (٢) ومن النظام (٣) . فعلماء الدهرية يقولون ان الزنج تقاعست عن ترك البيئة الفاسدة التي تحيط بها حتى صارت صورها تناسب القروء . (٤) اما مشى بن زهير فقد نسب الجاحظ اليه تشبيهه الزنج بالامة التي تعرضت الى عطية شديدة من الطبخ الحرارى ومثلها في عالم الحيوان الحمام الاسود المحترق والغريان الحالكة السواد ، ما يعكس الاثر السلبي لحسرة الشمس الشديدة على الخلق والخلق التي جعلت عقول السودان وحرانهم دون عقول السمر .

وقد روى الجاحظ على لسان ابن زهير قوله ان الزنج شر الناس (٥) . كما نقل عنه رأيه الذي يقرن السواد لدى الناس والحيوان بقلّة المعرفة وسوء الهداية . (٦)

- (١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ٤ : ٧٠ .
- (٢) المصدر نفسه ٢ : ٧٩ وقد نقل عنه الجاحظ كثيرا ما يختص بالحمام .
- (٣) المصدر نفسه ٥ : ٣٥ .
- (٤) المصدر نفسه ٤ : ٧٠ و٧٢ وقد قال علماء الدهرية : " وقال الصنف الآخر : لانكر ان يفسد الهواء في ناحية من النواحي فيفسد ماؤهم وتفسد تربتهم فيعسل ذلك في طباعهم على الايام كما عمل في طباع الزنج وطباع الصقالبة وطباع يأجوج ومأجوج وقد رأينا العرب وكانوا اعرابا حين نزلوا خراسان كيف انسلخوا من جميع تلك المعاني ."
- (٥) قال : " وان اسود الحمام فانما ذلك احتراق ، ومجاوزة لحد النضج ومثل سود الحمام من الناس الزنج فان ارحامهم جاوزت حد الانضاج الى الاحراق وشيطت الشمس شعورهم فتقبضت . والشعر اذا ادنيه من النار تجعد فان زده تغفل ، فان زده احترق . وكما ان عقول سودان الناس وحرانهم دون عقول السمر كذلك بيض الحمام وسودها دون الخضر في المعرفة والهداية . والغراب يكون مع ذلك حالك السواد شديد الاحتراق ويكون مثله من الناس الزنج فانهم شرار الناس وارداً الخلق تركيبا ومزاجا ، كمن بردت بلاده فلم تطبخه الارحام ، او سخنت فاحرقت الارحام . انظر الجاحظ ، كتاب الحيوان ٣ : ٢٤٥ و ٢ : ٣١٤ .
- (٦) قال صاحب الحمام : وكل شيء من الحيوان اذا اسود شعره او جلده اوصوفه (=)

اما النظام فقد وافق مثنى بن زهير فيما قال حول الاثر السلبي لحرارة الشمس على خلق السودان وخلقهم (١) .

وذكر الجاحظ مثالب اخرى للسودان . فمن مثالب الحبشة والنوبة في رأيه محاولة ملك الحبشة ابرهة في الجاهلية غزو الكعبة . (٢) ومن مثالبها ايضا عجزهما عن بلوغ المستويات الحضارية التي بلغتها سائر الامم المعتمدة وهو في ذلك ينتقد الشاعر حكيم بن عياش الكلبي * (٣) عندما وضع الحبشة ضمن الامم المعتمدة في قوله :

ألم يك ملك ارض الله طرا لاربعة له متميزينا
لحمير والنجاشي وابن كسرى وقيصر غير قول المتمرنا (٤)

فيرد عليه الجاحظ بقوله :

"... فما ادري باى سبب وضع الحبشة بهذا المكان . . . واما النجاشي فليس هو عند الملوك في هذا المكان ، ولو كان النجاشي في نفسه فسوق

(=) كان اقوى لبدنه ولم تكن معرفته بالمحمودة . وزعم ان الحمام الهُدَّاء انما هوف في الخضر والنمر ، فاذا اسود الحمام حتى يدخل في الاحتراق صار مثل الزنجي الشديد البطش ، القليل المعرفة . والاسود لا يجي من البعد لسوء هدايته والابيض وما ضرب فيه البياض لا يجي من الغاية ، لضعف قواه . " انظر الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٢ : ٧٩ .

(١) وقد سبقت الاشارة الى قول النظام في حديثنا عن الصقالبة ص ١٠٩ . وانظر كتاب الحيوان ٥ : ٣٥ واما الفارق بين النظام وصاحب الحمام فيمكن في توضيح عناصر التشبيه المعنوية بعملية الطبخ ؛ فامة الزنج هي كالبخز المحترق اي العجين الذي زاد في الاختمار وامة الصقالبة هي كالفطير الذي لم يخبز درجة كافية .

(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٧ : ١٩٩ و ٢١١ .

(٣) حكيم بن عياش المعروف بالاعور الكلبي . شاعر انقطع الى بني امية بدششق كان يتعصب لليمن على مصر . وروى الجاحظ عنه ان الزنج والنوبة اكرم من بني اسد وذلك في " كتاب فخر السودان ، رسائل الجاحظ ، ١ : ١٩٩ فيكون ذكر هذا الشاعر للحبش ضمن الامم المعتمدة سببا شعوبيا وليس ايمانا بضرورة رد الاعتبار الى امة الحبش وبالتالي السودان كما هو الهدف العام من " كتاب فخر السودان " .

(٤) الجاحظ ، البيان والتبيين ١٥ : ٣٨٤ .

تبع وكسرى وقىصر لما كان اهل ملكته من الحبش في هذا الموضع .
وهو لم يفضل النجاشي لكان اسلامه ، يدل على ذلك تفضيله لكسرى
وقىصر . وكان وضع كلامه على ذكر الممالك ثم ترك الممالك واخذ في ذكر
البلوك (١)

ومن المثالب التي ذكرها الجاحظ في الحبشة والنوبة ان الخصا يفعل بهم
ما لا يفعله بغيرهم قال :

" فاما الخصيان من الحبشان والنوبة واصناف السودان فان الخصا يأخذ
منهم ولا يعطيهم ، وينقصهم ولا يزيدهم ، ويحط بهم عن مقادير اخوانهم ،
كما يزيد الصقالبة عن مقادير اخوتهم (٢)

ومن مثالب السودان التي ذكرها الجاحظ ما يصيبهم من جزع وبخاصة النوبة
منهم (٣) . واما مثالب السند فهي المثالب التي تصيب غيرهم من السودان حينئذ
يخصون . ويزيد الجاحظ عليها عدم معرفة اهل السند بتربية الخيل ان هم قورنوا بصبيان
الحبشة والنوبة . كما اخذ الجاحظ على رجال السند عدم نجاحهم في تعهد البيوت
بالمقارنة برجال الروم (٤) . وقد عد الجاحظ السند من الامم الذليلة لان ظهور
الكبر فيهم ارسخ واعم من ظهوره في الاجناس المعتبرة كالروم والفرس . (٥)

-
- (١) الجاحظ ، المصدر نفسه .
 - (٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ١ : ١١٩ .
 - (٣) المصدر نفسه ، ٣ : ٤٣٣ .
 - (٤) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٣ : ٤٣٥ .
 - (٥) الجاحظ ، "رسالة في النبل والتنبيل وذم الكبر" ، رسائل الجاحظ ، ج ٤ : ١٨٢ ،
وكتاب الحيوان ، ٦ : ٧١ . وتجدر الاشارة الى سبب اغفالنا رأى الجاحظ فسي
مثالب القبط في هذا البحث لان الجاحظ نفسه لم يعددهم من السودان ولم ينص
انهم كذلك باستثناء ما سيرد من تأكيد انهم من السودان في كتاب فخر السودان
على البيضان . ولكن استكمالا لعرض آراء الجاحظ في الامم نشير الى ان الجاحظ
رأى ان القبط يتسمون بالغنى ونقص الاحلام بالمقارنة مع رجحان عقول قريش
والعرب . انظر البيان ٣ : ٢٩٥ ورسالة في حجج النبوة ، رسائل الجاحظ ، ج ٣ :
٢٧٠ - ٢٧٢ .

آراء السودان في انفسهم

غير ان الجاحظ الى جانب ذكره مثالب السودان ومناقبهم ، يعرض علينا ما يقوله السودان في انفسهم وذلك في رسالة فخر السودان على البيضان . وهو — يُلخص ما يقولونه في انفسهم بثلاث نقاط : اولا ان العرب والصين والهند — السودان فضلا عن القبط والبربر والزاج وغيرهم ولذلك فنحن حقهم المفاخرة بالانجازات الحضارية المقررة لهذه الامم . قال :

" قالوا : وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " بعثت الى الاحمر والا سود . " وقد علمت انه لا يقال للزنج والحبشة والنوبة بيض ولا احمر ، وليس لهم اسم الا السود . فاذا قال بعثت الى الاحمر والا سود ، ولسنا عنده حمر ولا بيض فقد بعث اليينا ، فانما عنانا بقوله " الاسود " . ولا يخرج الناس من هذين الاسمين ، فان كانت العرب من الاحمر ، فقد دخلت في عداد الروم والصقالبة ، وفارس وخراسان . وان كانت من السود ، فقد اشتق لها هذا الاسم من اسمنا ومن العرب لا من البيضان لقرب ألوانهم من ألواننا ، والهند اسفر ألوانا من العرب ، وهم من السودان قالوا : وانتم ترون كثرة العدد مجدا ، ونحن اكثر الناس عددا وولدا ونحن صنغان : النمل والكلاب (١) ولو عدلتم بالنمل العرب كلها لاربت عليها . فكيف اذا قرنت اليها الكلاب ؟ ثم كيف اذا ضمت اليها الحبشة والنوبة وفزان (٢) ومرو وزغاوة (٣) وغير ذلك من انواع السودان ؟ وانتم لم تروا الزنج الذين هم الزنج قط ، وانما رأيت السبي يجي من سواحل قنبلسة (٤)

(١) انظر كتاب الحيوان ، ٤ : ٣٥ والبيان ، ٣ : ٥١

(٢) فزان احدى مقاطعات ليبيا الثلاث واهلها يتكلمون العربية ولغة البربر وهم على المذهب المالكي . كان عقبة بن نافع قد فتح هذه المقاطعة عام ٤٦ هـ / ٦٦٦ م واصبحت مركزا لتجارة الرقيق . انظر :

Encyclopaedia of Islam, new ed., s.v. "Fazzan" by J. Despois.

(٣) زغاوة من امم السودان . انظر المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ص ١٩١ وانظر ايضا :

Encyclopaedia of Islam, old ed., s.v. "Sūdān" by Maurice Delafosse.

(٤) قال الجاحظ ان الزنج ضربان : قبلية ولنجومية . انظر البيان والتنبيه ، ٣ : ٥١ .

وغياضها واوديتها من مهنتنا وسفلتنا وعبيدنا ، وليس لاهل قنبلة جمال ولا عقول . . . ومتى رأيتم من سبي السند والهند قوما لهم عقول وعلوم وأدب وأخلاق حتى تطلبوا ذلك فيما سقط اليكم من الزنج ؟ وقد تعلمون ما في الهند من الحساب وعلم النجوم واسرار الطب والخرط والنجر والتصاوير والصناعات الكثيرة العجيبة ، فكيف لم يتفق لكم مع كثرة ما سببتم منهم واحد على هذه الصفة ، او بعشر هذه الصفة ؟ وقالوا : السودان اكثر من البيضان . . . والسودان يعدون الزنج والحيشة وفزان وبربر (١) والقيط والنوبة وزغاوة ومرو والسند والهند والقمار (٢) والديبلا (٣) والصين وما صين . . . وجزائر البحر ما بين الصين والزنج (٤) ملوثة سودانا كسرنديب وكله وامل وزابج . . . فتأملوا قولنا واحتاجنا ، فانا قد رويننا الاخبار وقلنا الاشعار ، وعرفناكم وعرفنا الامم . (٥)

(١) البربر اوسكان المغرب قوم دخلوا في الاسلام بداية القرن الميلادي الثامن (الهجري الثاني) وكانوا اصحاب ميول خارجية ابتداء من ١٢٢ هـ / ٧٤٠ م من قبائلهم : زواغة التي ساعدت ادريس الاول في تأسيس مملكة فاس . راجع :

Encyclopaedia of Islam, new ed., s.v. "Berbers," by G. Yver.

(٢) القمار بفتح القاف وكسرهما موضع في الهند ينسب اليه العمود القماري .
(٣) الديبلا مذكورة في معجم البلدان لياقوت " ديبلا " بفتح الدال وضم الباء وهسي مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند .
(٤) لعل الاصح ان تكون الزابج ، وهي جزيرة في الصين تعرف بسومطرة . انظر :

Encyclopaedia of Islam, old ed., s.v. "Zābag," by Gabriel Ferrand.

وقد اشار الجاحظ الى هذه الجزيرة في كتاب التربيع والتدوير (تحقيق بلا)
فقرة ٦٤ ص ٣٧ . كما نقل المستشرق المذكور قول ابن خرداذبة عنها وهو ان ملكا كان يدعى اسحق بن عمران (ت ٩٠٧ م) كان يحكمها ويحكم " كله " وان جزيرة زابج كانت مشهورة بالكافور .
(٥) الجاحظ ، " كتاب فخر السودان " ، رسائل الجاحظ ، ١ : ٢١٠ - ٢١٣ ، ٢١٥ - ٢١٧ .

أى أن على الأمم أن لا تستدل على مستوى السودان من خلال السببي الذي يصلها منهم ، وإنما من خلال الانجازات الحضارية السلم بها للصين والهند والعرب والزاج والقبط. وما دامت العرب من السودان فمن مناقبهم أيضاً نصرة الاسلام^(١). وما أن الهند منهم فإن من مناقبهم معرفة الفلسفة والنظر والثقافة والصبر وعلم الفكر^(٢)، وهي خصائص أمة الهند. وما دامت الزاج منهم ، فمن حقهم الافتخار بكثرتهم وقوتهم^(٣). وما أن القبط^(٤) منهم، فإن من حقهم الاعتداد بكون النبي قد رغب في مآهرتهم^(٥)، فضلاً عن كون إيلاف قریش معتمداً على العلاقات الطيبة مع المقوقس^(٦) عظيم القبط وصاحب الاسكندرية. وما أن السند من السودان فمن حقهم الاعتداد بفضائل السند كالفصاحة^(٧)، واتقانهم شئون الصيرفة^(٨)، والمعرفة بالعقاقير

(١) الجاحظ ، "كتاب فخر السودان على البيضان" ، رسائل الجاحظ ، ١ : ١٩٢ - ٢٠٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ٢١٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ٢١٨ حيث يذكر أن أهل الزاج أكثر من شطراهل الأرض.

(٤) القبط هو اللفظ العربي لنصارى مصر وكان اليونان يقصدون بهم سكان مصر والنيل؛ وحسب مصادر سامية فإن اللفظ يرجع إلى حفيد للنبي نوح استقر في وادي النيل. وما دار القبط فيقصد العرب بها الذرية النصرانية لقدماء المصريين وقد أوصى النبي محمد بهم خيراً . راجع :

Encyclopaedia of Islam, new ed., s.v. "Kibṭ," by A.S. 'Aṭiya.

(٥) الجاحظ ، "كتاب فخر السودان على البيضان" ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٢١٨ .

(٦) المقوقس أو عظيم القبط وصاحب الاسكندرية كما يدعوه الجاحظ هو حاكم مصر الذي عينه هرقل عام ٦٣١ م . راجع مقالة القبط المذكورة آنفاً في دائرة المعارف الإسلامية بالانكليزية .

(٧) الجاحظ ، "كتاب فخر السودان" ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ١٩٨ .

(٨) المصدر نفسه ، ٢٢٤ - ٢٢٥ .

ومهارتهم في الطهي (١) مع جودة اصواتهم (٢).

ثانياً : ليس ما يمنع ان تجمع امة السودان فضيلتي السخاء والذكاء ، ولا يجوز ربط سخائهم بقلّة تصورهم للعواقب (٣) . ثالثاً : ان اللون الاسود ليس عيباً فسي السودان وانما هو نتيجة للبيئة ، ففي العرب وغيرهم يظهر اللون الاسود دون ان يحيط هذا اللون من قدرهم . وفي ذلك يقولون :

” . . . ونحن نقول ان الله تعالى لم يجعلنا سوداً تشويهاً بخلقنا ، ولكن البلد فعل ذلك بنا . والحجة في ذلك ان في العرب قبائل سوداً كبنو سليم بن منصور . وكل من نزل الحرّة من غير بني سليم كلهم سود . وانهم ليتخذون الماليك للرعي والسقاء . . . ومن الروم نساءهم ، فما يتوالدون ثلاثة ابطن (٤) حتى تنتقلهم الحرّة الى الوان بني سليم . ولقد بلغ من امر تلك الحرّة ان ظباها ونعاصها وهوامها . . . كلها سود . والسواد والبياض هما من قبيل خلقة البلدة ، وما طبع الله عليه الماء والتربة ، من قبل قرب الشمس وبعدها ، وشدة حرها ولينها . وليس ذلك من قبل سخ ولا عقوبة ، ولا تشويه ولا تقصير . ” (٥)

وقد انتهى السودان الى التقرير ان التفاوت اللوني كافرط البياض وافراط السواد والسمة المتولدة بينهما هو كالتفاوت الملاحظ في طبيعة المخلوقات كافة ، فهي هيئاتها ونوازعها وصناعاتها وان ذلك كله ليس تشويهاً ولا عقاباً . قالوا :

” فليس سوادنا ، معشر الزنج ، الا كسواد بني سليم ومن عددنا عليكم من قبائل العرب في صدر هذا الكلام . وما افراط سواد من اسود من الناس ، الا كافرط بياض من ابيض من الناس . وكذلك السمة المتولدة

(١) المصدر نفسه .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه : ١٩٦ .

(٤) ذكر الجاحظ هذه الفكرة في كتاب التربيع والتدوير ، ايضاً . تحقيق بلا ، الفقرة ٤٨ صفحة ٣٠ - ٣١

(٥) الجاحظ ، ” كتاب فخر السودان على البيضان ” ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٢١٩ - ٢٢٠ .

من بينهما ، وكذلك الزى والهيئات ، وكذلك الصناعات ، والمطاعم
والشبهوات. (١)

وان ما ذكره السودان من اعتداد بكثرتهم وشدة ابدانهم وجمعهم المعرفة
الى القوة ، يهدف الى تصحيح الصورة الشائعة التي طرحها مثنى بن زهير من
كون السود يمثل القوة الجسدية دون قوة المعرفة (٢) .

-
- (١) الجاحظ ، "كتاب فخر السودان" ، رسائل الجاحظ ، ٢٢٠ وقد ردّ الجاحظ
اثر البلدان وتصرف الا زمان في "كتاب الاوطان والبلدان" ، رسائل الجاحظ
ج ٤ : ١٠٩ .
- (٢) الجاحظ ، "كتاب فخر السودان" ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٢٠٣ و ٢١٧ . وراجع
مقولة صاحب الحمام في كتاب الحيوان ، ٢ : ٧٩ و ٣١٤ و ٣ : ٢٤٥ .

الباب الثالث

=====

الخاتمة : بيان مقاييس الجاحظ في الحكم على الامم وتحليل آرائه .

=====

لقد استطاع الجاحظ من خلال حياته الطويلة (١٦٠ هـ / ٧٧٧ م - ٢٥٥ هـ / ٨٦٩ م) ان يحفظ لنا في كتاباته المتنوعة نظرة العرب الى انفسها من حيث هي امة انتها محاسن الامم بعد ان اجتمع فيها " فضلا النبوة والملك " (١) دون ان ينكر مما لسائر الامم المعتبرة من فضل ومناقب ، سواء التي ساندت الخلافة العباسية والتي لم تساندها .

لم يعتمد الجاحظ مقياسا واحدا في نظره الى الامم المعتبرة فهو ثارة يعتمد مقياسا حضاريا بمعزل عن الدين وطورا يعتمد مقياسا دينيا صرفا و احيانا يزاوج بينهما . ونجد المقياسيين متوافرين في كل من امم العرب والروم (٢) والترك وبعض اصناف السودان كالقبط (٣) . كما نجد المقياس الحضارى ضعيفا عند الصقالبة حين خصهم بمستوى الرماية وخدمة البيوت فقط . و احيانا يتوافر المقياس الحضارى بقوة ، دون المقياس الديني كما عند الهند والفرس واليونان و احيانا يضمحل المقياس الديني لدى الامم المعتبرة جميعا " حين يرى الجاحظ استواء " في تهافتها في مسألة الدين لانها تشترك جميعا في عدم اعمال الفكر وفي اتباع التقليد في الدين . (٤) ونجد ايضا المقياس الحضارى يقسوى في فكر الجاحظ ، مع تجاوز واضح لمقياس الدين وذلك حين جعل الجاحظ امم الفرس والهند والروم تشارك العرب في المنزلة الحضارية وذلك بفضل ما اسهم كل منها في الحضارة الانسانية ، حتى ولو لم تمت اى منها الى الاسلام بشي . ويدخل في المقياس الحضارى طائفة كبيرة من المناقب والخصائص الايجابية كما مر معنا من اجتماع خصائص خلقية كاجتماع العقول والاخلاق والآداب والاحلام وخصائص عملية كانتظام معانسي الفروسية والحرب واتقان الصناعات وغير ذلك ما سبق . ولقد اقر الجاحظ بالمناقب

(١) اللفظ للجاحظ ، انظر " رسالة في النابتة " ، رسائل الجاحظ ، ج ٢ : ٢١ .

(٢) لان الروم والقبط اهل كتاب وملة في مفهوم الجاحظ .

(٤) راجع " كتاب الاخبار وكيف تصح " للجاحظ ، المجلة الآسيوية ، ص ٩١ - ١٠٢ .

الحضارية للامم التي لولاها " لقد خس حظنا من الحكمة ولضعف سببنا المسمى المعرفة" (١) ولذلك عدّ المستشرق فرانز روزنتال ، الجاحظ ، رائدا في طرح فكرة الحكمة الخالدة للامم التي تناقلتها الى ان وصلت العرب الذين كانوا في نظر الجاحظ آخر من ورثها (٢) . وارى ان قيمة آراء الجاحظ التي عرضتها في مسألة الامم تكن في هذا الطرح السيكر لموضوع مناقب الامم ومثالبها (٣) في دائرة النثر العربي ما يدل على ممارسة الجاحظ في سائر كتاباته ، البعد الوظيفي الاعلامي للادب وسيلة بناء وتوجيه ؛ وقد دفع ذلك الطرح بعض النارسين الى القول ان مجتمع القرن الهجري الثالث ، التاسع الميلادي ، كان النواة التأسيسية للقرون اللاحقة حيث بلغت مواضيع كثيرة طرقها الجاحظ مرحلة النضج (٤) . فالجاحظ مثلا كان من اوائل الذين طرحوا فكرة التخصص الحضاري وغلبة طابع معين على امة من الامم ، كغلبة طابع البيان على العرب وطابع السياسة على الفرس وطابع الحكمة على اليونان والصناعات على الصين ، مع استواء الجميع في التحلي بقدر مشترك من الفضائل وذلك لاشتراكهم في معنى الانسانية الذي يقع حمدا كما يقع ذما . ولنا ملاحظة في المعاني الحميدة التي رآها الجاحظ في الامم . فاقواله التي اطلقها في مناقبهم مع استدراكه بانها الاغلب عليهم ، وانها فيهم اعم واتم واظهر واكثر (٥) ، تحتل فيما تحتل وخاصة تلك التي تتحدث في

(١) انظر الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ١ : ٨٥ و ٨٦ .

(٢) المصدر نفسه وانظر ايضا :

Franz Rosenthal, Technique & Approach of Muslim Scholarship, p.71.

(٣) فضلا عن تلقيح الجاحظ النثر العربي بمواضيع جديدة اخرى كالنقد الادبي والجغرافيا وعلم الاجتماع وعلم الحيوان .

(٤) انظر :

Charles Pellat, The Life and Works of Al-Jāhiz, University of California Press, 1969, p. 22

وانظر ايضا: محمد عبد المنعم خفاجي ، ابو عثمان الجاحظ ، (بيروت : دار

الكتاب اللبناني ، ١٩٨٢) ص ١٨٨ - ١٨٩ و ٢٤٣ .

(٥) انظر الجاحظ ، رسالة " في مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، ١ : ٧٣ .

خصائص الام المستقدمة الى دار الاسلام من الجند والسوالي والعبيد ، الا تكون مثلية للواقع الاجتماعي لاخوانهم غير المستقدمين للعمل في خدمة الخلافة العباسية . اى انه يجوز ان تكون جماعات الترك المستقدمة الى سامرا* تمثل نسبة ضئيلة من المجتمع التركي ، كما يجوز ان يكون افراد الصقالبة والزنج الموجودين في المجتمع العباسي لا يعكسون الوجه الايجابي الحقيقي لاخوانهم في بلادهم . ومن الطبيعي ان ذلك كله كان يحتاج من الجاحظ الى اجراء دراسة دقيقة للوصول الى آراء جامعة مانعة . اما فيما يتعلق بمثالب الام فأرى ان ابلغ ما قاله الجاحظ في هذا الخصوص كون الامة تعرف بكثرة الحسنات وقلة المساوي* ، فاما ان تبرأ الامة المعتبرة من المثالب ، دقيقها وجليلها ، فهذا ما لا يعرف في نظر الجاحظ (١) . ويلاحظ القارئ ايضا ان الجاحظ كان ينظر الى المثالب من الزاويتين المشار اليهما آنفا ، اى الزاوية الحضارية والزاوية الدينية ، حتى نرى الخصلة عنده سيئة بمقدار بعدها عن الاسلام ، كخلصة الزندقة لدى بعض طوائف الترك ، وخلصة عبادة النجوم والكواكب والقسول بالدهرية كما لدى اليونان والروم وخلصة عبادة الاصنام كما لدى العرب والهند وخلصة عبادة النار لدى الفرس ، فضلا عن محاولة ملك الحبشة غزو مكة ، التي عدّها مثلبة صبغت الامة جميعها .

واما اقوال الجاحظ في الارتباط العضوي للناس بمحيطهم الجغرافي من هوا* وما* وتربة ، فتعد ايضا من المحاولات الاولى من نوعها التي ترى الانسان ابن بيئته . وقد قدر لهذه الاقوال ان يردّها كثير من الجغرافيين من بعده (٢) . والذي يعنيننا هنا ان الجاحظ لاحظ استواء الام في خضوعها الى العوامل الجغرافية المذكورة

(١) الجاحظ "رسالة في مناقب الترك وعامة جند الخلافة" ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٣٧ . وانظر ص ١١ من هذه الرسالة وقارن مع التوحيد في الامتاع ١ : ٧٣ .
(٢) انظر :

Tarīf Khālīdī, "Some classical Islamic views of the city," *Studia Arabica & Islamica*, Festschrift for Ihsān 'Abbas on his sixtieth Birthday. Edited by Wadād Al-Qādi. (Beirut: American University of Beirut, 1981) p. 273.

فللوطن اثر يعمل في طبائع كل امة (١) ، سلبا وايجابا ، بحيث تصلح الناس بملاح
العوامل الجغرافية وتفسد بفسادها . قال الجاحظ :

"... وعلى قدر اختلاف طبائع الاماكن شاهدنا اللغات والاخلاق
والشبهات ولذلك قالوا : فلان " ابن بجدتها " وفلان " بيضة البلد " ،
يقع زما ويقع حمدا " (٢)

وقد ظهر اثر صلاح الهواء والترية والماء بأجلى صورته في مكة والمدينة والبصرة ومصر
والشامات (٣) ، مما دفع الجاحظ الى طرح مقولته في تفاضل البلدان وبالتالي تفاضل
الطبقات الاجتماعية المستقرة في هذه البلدان ، كفضل بني هاشم على قريش وفضل قريش
على سائر قبائل العرب التي تفضل بدورها سائر الامم ، فضلا لايتماد على النسوة
وخصائصها الاخلاقية فحسب وانما على محيطها البيئي الصالح ايضا (٤) . كما ظهر اثر
فساد الهواء والترية والماء في الكوفة (٥) وانطاكية وقصبة الاهواز (٦) ، والاخيرة كانت

-
- (١) اللفظ للجاحظ ، راجع كتاب في الاوطان والبلدان " ، رسائل الجاحظ ، ج ٤ : ١١٣
(٢) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ٣ : ٢٩٤ .
(٣) الجاحظ " كتاب في الاوطان والبلدان " ، رسائل الجاحظ ، ج ٤ : ١١٣ ، ١٣٨ ، ١٤١ .
وقد ظهر الاثر الايجابي للبصرة ومصر في طول اعمار سكانهما وحسن عقولهما وحذقهما
جميع الصناعات فضلا عن كثرة دورهما في حين ان عامة الكوفة " خراب يباب " انظر
المصدر نفسه ، ٤ : ١٤٢ .
(٤) المصدر نفسه ، ٤ : ١٢١ و ١٢٨ و ١٣٦ و ١٤١ .
(٥) قال الجاحظ ان طبيعة الكوفة فاسدة التربة وخبثية المغرس والشر كما قال : " وخبرني
من بات انه لم يركواكبها زاهرة قط وانه لم يرها الا ودونها هبوة وكأن في مائهم
مزاج دهن " . انظر الجاحظ " كتاب الاوطان والبلدان " ، رسائل الجاحظ ، ج ٤ : ١٤٢ .
(٦) انعكس فساد طبيعة الاهواز على حيوانها وانسها حتى ان البخل عمها معا .
انظر البخل ، ١٣ .

تفسد مزايًا بني هاشم لان تربة الاهواز فاسدة بخلاف تربة مدينة النبي (١). غير انه لا يفهم من ذلك ان الجاحظ اعطى العوامل الجغرافية هذه دورا مطلقا يُعْلِلُ به جميع مظاهر السلوك الاجتماعي السلبي للامم ، او يعزو اليه محاسن الاجناس ، لان ذلك يتعارض مع مفهومه لعملية التكليف الالهي لافراد الامم جميعا ولذلك حرص الجاحظ كما رأينا في كلامه عن مثالب الامم المعتمدة ، الى ابراز عامل آخر غير مادي مسؤول عن وقوعها في الخطأ ؛ ألا وهو فساد الارادة البشرية حين تركز الى "الهوى والتقليد وترضى بالسابق الى القلوب وتذهب مع العصبية والاستسلام للنشأ" (٢). وقد عسى الفساد المذكور الامم غير المعتمدة كالمصقلية والزنج حين التزمتا الساكن الوئدة ولسم ترتحلا عنها الى البيئات الصالحة ، فكان تقاعسهما تأكيداً للرأى الجاحظ فيما يرافق لزوم مثل هذه الاماكن من الفشل والنقص . (٣)

وأخيراً لا آخراً ، تجدر الإشارة الى ان الجاحظ مع اعتقاده بتفاضل الامم والبلدان ، فهو لم ينظر نظرة عرقية الى سائر الاجناس من غير امة العرب . وفيما يتعلق بنظرته الى الاثنيات او الاعراق المختلفة المتواجدة في دار الاسلام فهي نظرة تعكس المفهوم الاسلامي للامة الذي يلحظ انصهار عدة اثنيات متماسكة فاعلة في بوتقة واحدة هي مؤسسة الخلافة . وقد ظهر هذا الموقف جلياً فيما عرضنا من اقواله في الامم وخاصة في رسالته في مناقب الترك وعامة جند الخلافة التي كتبها بهدف تأليف قلوب جند الخلافة (٤). وما يؤكد هذا الهدف وتلك الرؤيا التي تعكس السياسة الاممية غير

(١) الجاحظ "كتاب في الاوطان والبلدان" ، رسائل الجاحظ ، ج ٤ : ١٣٥ - ١٣٦ .

(٢) الجاحظ ، "كتاب الاخبار وكيف تصح" ، المجلة الآسيوية ، ص ١٠١ - ١٠٢ . قال

الجاحظ : والنسق على التقليد هو الذي ملا خواطرهم وامات قلوبهم ولو كان ذلك من قبل الطالع والتربة لما حسن الامر والنهي ولما جاز الحمد والثواب واللائمة والعقاب ولما كان لا رسال الرسل معنى .

(٣) الجاحظ ، "كتاب في الاوطان والبلدان" ، رسائل الجاحظ ، ج ٤ : ١٠٩ .

(٤) الجاحظ ، "رسالة في مناقب الترك" ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٢٩ و ٣٦ و ٨٦ .

القلبية او العرقية للدولة العباسية انتقاد الجاحظ التالي للشاعر المتلمس . قسـال :

" ولقد اسرف المتلمس حيث يقول :

احارث انا لو تساط دماؤنا تزايلن حتى لايمس دم دما
واشد سرفا منه قول ابي بكر الشيباني . قال : كنت اسير مع بني عم لـسي
من بني شيبان وفيما من موالينا جماعة في ايدي التغالبة ، فـضربوا اعناق بني
عمي واعناق الموالي على وهدة من الارض ، فكنت والذي لا اله الا هـو ،
ارى دم العربي ينماز من دم المولى ، حتى ارى بياض الارض بينهمـا ،
فاذا كان هـجينا قام نوقه ولم يعتزل عنه . " (١)

وبعد ، فاننا لانجد الجاحظ في كتاباته ، يعنى بتعريف الامة ، وانما نراه مكثفها
بذكر العوامل الفاعلة في نشوئها والمؤثرة فيها (٢) ، دون الاهتمام بطرح تحديد مباشر لها .
وقد درر الجاحظ هذه العوامل المؤسّسة لظهور امة والمقررة لهويتها ، الـسي
ما قسمه الله من خصائص خلقيّة وخلقّيّة لامة ما (٣) وخصائص

(١) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ٣ : ٦١ .

(٢) كقوله في واقع امة العرب قبل الاسلام ، الذى يرجعه الى تراكم التفاعل الابهجاسي
المميّز بين جملة عوامل جغرافية وخلقّيّة ، حتى صارت هذه العوامل " ولادة اخرى
تناكحوا عليها وتماهروا من اجلها " اى قامت عندهم مقام حرمة الولادة وفضل الارحام
الماسّة ، تمهيدا للامر المزمع والحادث المتوقع . راجع : الجاحظ ، " رسالة نفسي
مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ١١ .

(٣) اى " ما قسم الله تعالى لاهل كل جيزة من الشكل والصورة ومن الاخلاق واللغة " وهي
خصائص لا ارادية . انظر الجاحظ ، " رسالة في مناقب الترك وعامة جند الخلافة " ،
رسائل الجاحظ ، ج ١ (١٩٦٤) : ١٠ - ١١ .

البيئة الجغرافية (١) المحيطة بتلك الامة ، فضلا عن ردة الفعل الاختيارية
للالرادة الانسانية (٢) ازاء هذه المعطيات ، الارادة التي يراها العنصر الاهم (٣)
في تمييز امة عن سواها .

-
- (١) اى " ما طبع الله عليه البلدة وما قسم لتلك التربة . . . كما تجد لأهل كل ماء وهواء
وطينة نوعا من الاخلاق والمنظر والزى والصناعة واللغة . " انظر الجاحظ ، المصدر
نفسه ، ص ٦٣ وانظر " كتاب الاخبار وكيف تصح ، " تحقيق شارل بلا ، المجلة
الآسيوية ، ج ٢٥٥ ، ١٩٦٢ ، ص ١٠١ .
- (٢) وهذه الارادة غير مسخرة للمعصية او للمفسدة لان الله تأبى على نفسه التيسير
للمعاصي . انظر : الجاحظ ، " رسالة في حجج النبوة ، " رسائل الجاحظ ، ج ٣ :
٢٤٦ و كتاب الحيوان ، ١ : ١٤١ .
- (٣) رأينا ان الجاحظ في حكمه على مناقب الام ومثالبها كان ينطلق من ملاحظته دور
الارادة البشرية وردة فعلها الايجابية او السلبية ازاء المعطيات البيئية والمعنوية
المتاحة امامها ، حتى نجد ، يعزو القسط الاوفر من مثالب الام كافة الى فساد
الارادة وسوء الاختيار اكثر منه الى المحيط الجغرافي . انظر : الجاحظ ، كتاب الاخبار
وكيف تصح ، ص ١٠١ وانظر ايضا : " كتاب الاوطان والبلدان " ، رسائل الجاحظ ،
ج ٤ : ١٣٥ - ١٣٦ و ١٤٢ .

- ١٣ - " من دقائن رسائل الجاحظ : (١) رسالة في اثبات امامة امير المؤمنين علي بن ابي طالب ، (٢) رسالة في تفضيل بني هاشم على من سواهم " ، مجلة لغة العرب ، الجزء ٦ و ٧ (السنة ٩ ، ١٩٣١)
صفحة ٤٩٧ - ٥٠١ و ٤١٣ - ٤٢٠ .

(ب) المصادر العربية عددا مؤلفات الجاحظ :

- ١ - ابن الاثير ، ابو السعادات مبارك بن محمد . النهاية في غريب الحديث . ج ١ ، مصر : المطبعة العثمانية ، ١٣١١ هـ .
- ٢ - ابن حزم ، ابو محمد علي بن احمد . جمهرة انساب العرب . تحقيق ليفي بروفنسال . مصر : دار المعارف ، ١٩٤٨ .
- ٣ - ابن خلدون ، ابو زيد عبد الرحمن بن محمد . العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر . ج ١ (المقدمة) . القاهرة : بولاق ، ١٢٨٤ هـ .
- ٤ - ابن خلكان ، شمس الدين ابو العباس احمد بن محمد . وفيات الاعيان . ج ٦ ، تحقيق احسان عباس . بيروت : دار الثقافة ، ١٩٧٢ .
- ٥ - البيروني ، ابو الريحان محمد بن احمد . تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل او مردولة . حيدرآباد الدكن : مجلس دائرة المعارف العثمانية ، ١٩٥٨ .
- ٦ - الخوارزمي ، ابو عبدالله محمد بن احمد . مفاتيح العلوم . تحقيق ج . فان فلوتن . ليدن : بريل ، ١٩٦٨ .
- ٧ - السعودي ، ابو الحسن علي بن الحسين . التنبيه والاشعار . بيروت : مكتبة خياط ، ١٩٦٥ . وليدن : مطبعة بريل ، تحقيق ج . دوغويه ، ١٩٦٧ .
- ٨ - ياقوت الرومي ، شهاب الدين ابو عبدالله . معجم البلدان . ج ١ . بيروت : دار صادر ودار بيروت ، ١٩٥٥ .
- ٩ - الجواليقي . المعرب من الكلام الاعجمي على حروف المعجم . القاهرة : دار الكتب المصرية ، ١٣٦١ هـ .

ثانيا : المراجع .

(أ) المراجع العربية :

- ١ - بلا ، شارل ، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامرا . ترجمة ابراهيم الكيلاني . دمشق : دار البيقطة العربية ، ١٩٦١ .
- ٢ - الحاجري ، طه . الجاحظ حياته وآثاره . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٩ .
- ٣ - خفاجي ، محمد عبد المنعم . ابو عثمان الجاحظ . بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٩٨٢ .
- ٤ - شلحت اليسوعي ، فكتور . النزعة الكلامية في اسلوب الجاحظ . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٤ .
- ٥ - عمر ، فاروق ، طبيعة الدعوة العباسية . بيروت : دار الارشاد للطباعة والنشر ، ١٩٧٠ .
- ٦ - كتابجي ، زكريا . الترك في مؤلفات الجاحظ . بيروت : دار الثقافة ، ١٩٧٢ .
- ٧ - ونسك ، أ . ي . ، ومنسوخ ، ي . ب . المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي . لندن : بريل ، ١٩٦٧ .

- 1- 'Atiya, A.S. S.v. "Kibt!" In The Encyclopaedia of Islam.
New ed.
- 2- Barthold, W. S.v. "Toghuzghuz." In The Encyclopaedia of Islam 1st e
- 3- Beeston, A.F. S.v. "Abraha!" Ibid. New ed.
- 4- Delafosse, Maurice, S.V. "Sūdān!" Ibid. 1st ed.
- 5- Ferrand, G. S.v. "Al-Amīn!" In The Encyclopaedia of Islam.
New ed.
- 6- _____, S.v. "Zābag!" Ibid. 1st ed.
- 7- Khalidi, T. Islamic Historiography. N.Y.: State University of
New York Press, 1975.
- 8- _____, "A Mosquito's Wing: Al-Jāhiz on the Progress of
Knowledge." In Arabic and Islamic Garland. Edited by colleagues,
friends and students of Abdul-Laṭif Ṭibāwī, London, 1977.
- 9- _____, "Some Classical Islamic Views of the City." In Studia
Arabica et Islamica. Festschrift For Iḥsān 'Abbas on his
Sixtieth Birthday. Edited by Waḡād al-Qāḍi, Beirut: American
University of Beirut, 1981, pp. 265-276.
- 10- Le Strange, Guy. The Lands of the Eastern Caliphate. Cambridge
University Press, 1930.
- 11- Lockhart, L. S.V. "Al-Ahwāz!" In The Encyclopaedia of Islam.
New ed.
- 12- Muir, W. The Caliphate, its rise, decline and fall. Edinburgh,
1915.

- 13- Pellat, C. The Life and Works of Al-Jāhiz. Berkeley: University of California Press, 1969.
- 14- _____, S.v. "Al-Djāhiz!" In The Encyclopaedia of Islam. New ed.
- 15- _____, S.v. "Ḥilf al-Fudūl!" Ibid.
- 16- Rocher, L. S.v. "Sutra and Sastra Literature." In The Encyclopaedia of Religion. v. 13, 14. New York: Macmillan Publishing Co., 1987.
- 17- Rosenthal, F. Technique and Approach of Muslim Scholarship. Rome: Pontificium Institutum Biblicum, 1947.
- 18- Van Ess, J. "The Logical Structure of Islamic Theology." In Logic in Classical Islamic Culture. Edited by G.E. Von Grunebaum. Wiesbaden: Otto Harrassowitz, 1970.
- 19- Zettersteen, K.V. S.v. "Al-Abnā'" In The Encyclopaedia of Islam. New ed.